ABU ABDO ALBAGL

نصري الصايغ

بولينغ في بغداد

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

إذا أعجبك الكتاب فرجاءً حاول أن تشتري النسخ الورقية
الكتاب والناشرون العرب معترون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم ضمانٌ لاستمرارهم
من أقوال الرفيق الغير مناضل أبو عبدو البغل

نصري الصايغ

بولينغ في بغداد

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

BALLING IN BAGHDAD

By Nasri EL-Sayegh

First Published in December 2003
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21150 3

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by anymeans, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣

إلى مايكل مور
طفلاً ناصع الرجولة

المحتويات

شكر	١١
القسم الأول: أحلام عراقية	**١٣**
الحلم الأول: العادي مستحيلاً	١٧
الحلم الثاني: صورة عائلية	٣١
الحلم الثالث: غلط. غلط. غلط	٣٩
الحلم الرابع: دعوا الأطفال يأتون إلي... في فلسطين	٥٣
الحلم الخامس: قبور من السماء	٨٩
الحلم السادس: أبانا الذي في السماوات	١١١
الحلم الأخير: «لسَّه الأغاني ممكنه»	١٢١
القسم الثاني: ملحق لا بد منه	**١٣١**
١ ـ قطار القتل السريع	١٣٣

٢ ـ كتابة ١٤٥
٣ ـ كيف تكون أميركياً ١٤٩
٤ ـ لو كنت أميركياً ١٥٥
٥ ـ يا للعار! ١٥٩
٦ ـ عذراً وشكراً ١٦٣
٧ ـ ويهددوننا بالديموقراطية! ١٦٧
٨ ـ الحق على الشهداء ١٧١
٩ ـ ما فوق الغضب ١٧٥
١٠ ـ كيف حال فلسطين؟ ١٧٩
١١ ـ يا أمة ١٨٣
١٢ ـ الفضيحة ١٨٧
١٣ ـ لست من أكلة لحوم البشر ١٩١
١٤ ـ السقوط ١٩٥
١٥ ـ كتاب غير مفتوح ١٩٩
١٦ ـ هكذا كلمني زرادشت الفلسطيني ٢٠٣

شكر

أنا مدين لعدد كبير من الكتب والأفلام والقصائد والوثائق التي وفرها لي عدد من الأصدقاء. وأشكر يوسف صلاح الذي أصر على «حلم سابع»، وسركيس أبو زيد لإلحاحه على تظهير الكوابيس، وبهيج أبو غانم لإنفاقه وقتاً ثميناً لمراقبتي، ووفاء عبد النور لعنايتها بالنص، ورلى خليفة لإنقاذها هذه الأحلام من الفوضى، ورندا بعقليني لتهذيبها المسودة على «الكومبيوتر» ونيكول خير الله التي تحملت عبء النقل من خطي الرديء إلى حروف سويّة.

وأشعر بدين كبير للمخرج والممثل مايكل مور الذي فتح عيني عبر فيلمه «بولينغ فور كولومباين» على الأميركي

المضرج بالقتل. وعرفاناً ووفاء مني لمواقفه وإبداعاته. أهديته هذا الكتاب. وشكراً لعناء ابنتي غادة التي أصرت على اختيار هذا العنوان للكتاب.

القسم الأول

أحلام عراقية

ذات يوم، حلم أطفال العراق بنهار عادي جداً: استيقظوا صباحاً، غسلوا وجوههم، تناولوا فطورهم مع العائلة، ومضوا إلى المدرسة لتعلم اللغات والحساب والتاريخ والجغرافيا، و.. حتى جاء المساء، كالعادة، فناموا على وعد بحلم آخر، ربما يكون غير اعتيادي... لكن ذلك كان مستحيلاً، فالأيام العادية في العراق، رفاهية بعيدة المنال.

وفي ليل آخر، حلم أطفال العراق، حلماً جميلاً مسكوباً بالحنان. رأوا أطفال أميركا ينهضون من نعاسهم يشربون العصير وصحونها بـ«الكورن فليكس»، ينتظرهم «الأوتوكار» للذهاب إلى المدرسة، يتعلمون ويلعبون

ويغنون، ويعودون إلى بيوتهم الجميلة، وسط عائلة معطرة بالحب والعطف. وكم كان ذلك الحلم يشبه قطعة حلوى. وكم فرح أطفال العراق، لأن ذلك الحلم لم يكن مستحيلاً، ولم يحسدوا أحداً عليه، فمن حق الأطفال أن يكونوا سعداء.

في ليل ثالث، حلم أطفال العراق، حلماً واحداً متشابهاً. حضر أطفال أميركا الصغار، وأقاموا ساعات بعمر دهور، في ضيافة التاريخ والحضارة، تعرفوا إلى نينوى وبابل وبغداد، استضافهم أشور بانيبال، و... لكن ذلك الحلم كان مستحيلاً جداً، فليس للعراق يدخل منه أطفال أميركا.

وذات يوم، التقى أطفال العراق، وأميركا وفلسطين، في فلسطين. زاروا بيت لحم، اغتسلوا بالأردن. رأوا يسوع طفلاً وبشراً ومصلوباً وقيامة. زاروا المسجد الأقصى، التقوا بالله هناك، يتنزه بين بساتين البرتقال وزيتون الحقول وعناقيد الخمر في قانا. كان حلماً سماوياً. ولكنه للأسف، كان حلماً مستحيلاً، ففلسطين مغلقة بالاحتلال.

مرة، اشتهى أطفال العراق حلماً ممتعاً، ينسيهم فقر النهار. اشتهوا أن تكون الوسادة نعيماً. في ذلك الليل، رأى أطفال العراق طائرتين تنتحران في برجين في مدينة نيويورك. ذعر الأطفال. خافوا. بكوا. ابتل الليل بدموعهم. ولما استيقظوا من كابوسهم لم يصدقوا.

ولكن، للأسف، كان ذلك الحلم حقيقياً. إنما، وحدهم أطفال العراق، بكوا مرتين: مرة في المنام، ومرة أمام شاشات التلفزيون. ولكنهم لم يفهموا لماذا كان عليهم أن يدفعوا الثمن، وأن يكون العراق فدية.

وفي اليوم السادس، بحثت الأحلام عن أطفال العراق، فلم تجدهم. كان العراق بلا أطفال. ذهبوا قبل الأوان إلى السماء، وهناك التقوا بأطفال أميركا وأطفال فلسطين. ورأوا أن السماء، ليست إلا الأرض كما يجب أن تكون. ولم يكن الأمر مستحيلاً.

وفي اليوم السابع... عاد جميع الأطفال إلى هذا العالم. وقرروا ألا يموتوا أبداً. فالأفكار لا تموت أبداً.

سأروي لكم بالتفصيل، هذه الأحلام، ليلة ليلة، واخترت أن أكتبها بلغة الكبار.
ألم يكن الكبار أطفالاً ذات يوم؟
ألم يكونوا ملائكة بشرية؟
إذاً: هي أحلام بطريقة اليقظة.

الحلم الاول

العادي مستحيلاً

ذات صباح، خرج أطفال من وساداتهم، مسحوا عن عيونهم سحنة النوم، وتهيأوا لتلاوة أحلامهم. وكم كانت دهشتهم وحيدة من جنسها، إذ اكتشفوا أنهم شاهدوا في ليلهم حلماً واحداً. قالوا: الأحلام تتشابه. وقرروا أن يرووا حلم ليلتهم، من خلال شرفة الكلام، لأطفالٍ، يسافر إليهم القمر والنعاس، في كل يوم.

جلس كأطفال العراق على حافة نومهم ورووا لأطفال أميركا ما ربحوه في منامهم:

حلُمنا، أن يداً زرعت أناملها في شعرنا الدافئ، أن شفتين حنونين، ارتاحتا على خد ناضج الحمرة، وأن همساً رقيقاً عند شحمة الأذن: صباح الخير، إنهض يا ولدي، حان وقت الضوء. هذا نهار لتمرّن عينيك على الأشعة.

حلمنا، أن أمهاتنا كرّرن التودّد بحسم، طلبن أن ننهض من فراش ننتمي إليه كل ليل، ووسادة تسهر على توضيب أحلامنا لديها، لتحفظها لنا كأسرار ممنوعة عن النهار.

حلمنا أننا نهضنا إلى حنفية الماء، غسلنا وجوهنا، نظفنا أسناننا بفراش ملوّنة، وسرّحنا شعرنا أمام مرآة تشبه وجوهنا. كل صباح. وبسرعة، لبسنا ثيابنا، هندمنا قاماتنا، وجلسنا إلى طاولة الطعام، ننتظر أخوات لنا، يفحصن سراً نهودهن، علّ عنبهن ينضج في مواسم الصبيان.

احتسينا شاياً عراقياً، أكلنا تمراً من نخيل كريم، وتذوقّنا عسلاً من كلام أمهات، لصدقهن نايات من... حنان.

كان الآباء، كعادتهم، يربتون أكتافنا بنعومة متكلّفة، يخرجون من جيوبهم مصروفنا اليومي، ويطلبون منا أن ننتبه إلى دروسنا ومصروفنا.

هل يتصرف الأباء دائماً هكذا؟
يبدو لنا أن أمهاتنا من سحاب، وآباءنا من نصائح تتردد كل يوم، كأنهم يريدوننا رجالاً، دفعة واحدة.

حملنا حقائبنا، ومضينا إلى مدارسنا وكسلٌ ناعم يدب في أقدامنا. لكننا، عندما قرع الجرس، وكانت الثامنة قد جلست مكانها في الساعة، دخلنا صفوفنا، بشيطنة بريئة. وكان ما كان.

درسنا الحساب حتى طافت الأرقام من أوراقنا، وتعلمنا اللغة العربية،

حتى بتنا نشعر وكأنها بيتنا الثاني ولساننا الناطق، ودرسنا اللغة الإنكليزية، وعوَّلنا كثيراً عليها، كي نشاهد مسلسلات التلفزيون بمتعة. وقُدمت لنا فسحة لتعلم الفرنسية بلكنة تصعب علينا قليلاً.

وبين حصة وأخرى، كنا نتراشق بابتسامات وضحكات وإشارات صبيانية، كما حاولنا أن نظهر كفاءتنا في تقليد الأساتذة بشكل كاريكاتوري مضحك.

أساتذتنا ومعلماتنا لا يتشابهون. نغفر لهم تأنيبهم لنا، عندما يقلّون من الفروض، ويعفون من القصاص، ويسخون علينا بالعلامات والملاحظات المشجّعة. أما عندما يوزّعون علينا الجوائز، فإننا نشعر وكأننا من عائلة واحدة.

وذلك اليوم، امتلأ بكثير من الجوائز. فقد أعطي كل واحد منا شريطاً غنائياً. رقصنا من فرح جديد، واستعجلنا العودة إلى بيوتنا، كي نحتسي بمسامنا إيقاع الغناء، وألحان الموسيقى، ونحفظها عن ظهر قلب. نحن أطفال ننتمي إلى الموسيقى، فهي فصولنا الأربعة.

كثير منا، خربش على أوراق سرية كلاماً لحبيبة صغيرة لم يلتق بها بعد، ولكنه يعرفها من اللحظة التي فتح فيها قلبه على شهوة الحياة. أليس الحب غناء الآلهة؟

لعبنا، درسنا، كتبنا، تشيطنّا، ضحكنا، ثم عدنا إلى بيوتنا.
ما أجملهن! أمهات كالانتظار، كاستقبال دائم... أخذننا بعناق، انتزعن منا الحقائب، وبسرعة غسلنا أيادينا، وجلسنا إلى طاولة الغذاء. وكان آباؤنا قد تربعوا كعادتهم الرجولية على رأس المائدة.

رائحة الطعام تنتشر بحرية في أرجاء البيت. تشبه شروداً أو هروباً من مكان العطر وأواني التوابل وأشواق الجوع المقيمة في عيوننا.

التهمنا طعاماً مسكوباً بحنان. لحسنا أصابعنا من مرق الصحون، وانتظرنا ملاحظات آبائنا: كلوا على مهل. امضغوا الطعام جيداً. هل غسلتم أياديكم قبل... ثم بعد؟ هل وهل؟ إن الآباء، لرغبتهم في نجاحنا، يثقلون علينا الطعام. وكلامهم لا يشبه فاكهة نطق الأمهات اللواتي يسدلن لغتهن كباقة من شعر تلهث في حناياه حنانات الأمومة. ربت آباؤنا بطونهم ثم نهضوا إلى غرفة القيلولة. تصفحوا مجلات، استمعوا إلى أخبار، فيما كانت الأمهات يشرعن أياديهن لعمل دؤوب.

وحلمنا، أننا عند العشية، عدنا من حديقة الدار، درسنا قليلاً، تذمّرنا قليلاً، ضحكنا قليلاً، حتى دهمنا ليل سحبنا باكراً إلى فراشنا. فالنوم الباكر صحة دائمة، كما يقول الآباء الساهرون على الأوامر والتنبيهات. ولاحظنا، أنهم كعادتهم، يقولون كلاماً حاسماً، نستشف منه حباً ملجوماً. إنهم لا يحبون الدلع. وعندما نختلس النظر إلى قلوبهم، نحس أنها تفيض حناناً من عيون تبرق بغناء، وترى صورتهم في وجوهنا. يتراءى لنا أنهم يتفحصوننا. يودون لو يكونون نحن، فيما هم يرغبون أن نصبح مثلهم رجالاً في الغد. مساءً يجيدون تمثيل الرجولة ومقتضيات القسوة النبيلة.

ذلك اليوم، ككل يوم، جلس آباؤنا إلى كتبهم يطالعون. فالعراقي يرضع القراءة مع أول حليب، ومن أول إطباقةٍ لشفتيه على ثدي أمه. وبينما هي تحدو له عن أعناق النخيل وثرثرة المياه ومخيلة

القصائد، يتحول أطفال العراق إلى شعراء يرسمون بزفيرهم وشهيقهم تفعيلة البيت، ونثر الشعر، ونغم المعنى.

ولأن آباءنا عراقيون جداً، ولأن أول أبجدية ولدت في بلادنا، فهم سدنة اللغة والشعر. هم حراس الكلمات ومروجوها. يسرّحون أفكارهم في الأزمنة، ثم، يقيمون اتصالاً وثيقاً بين الأرض والسماء... ولا يسمون ذلك الدرب معجزة. كل عراقي يولد، وتاريخ شاهق، لفافة روحه.

كعادتهم، جلس الآباء يقرأون، وخلفهم تآخت كتب قديمة وحديثة وبلغات مختلفة. أسماء كثيرة مرصوفة بترتيب، وهم على انحيازهم إلى لغتهم، كثيرو الشغف بالآداب الأجنبية، يتقنون ترجمتها والتأليف.

إنهم لا يكذبون. لقد درّسونا في المدرسة، أن امرأة شاعرة تأثرت بالأدب الإنكليزي، فكتبت أول قصيدة حديثة. وهي من صنف الملائكة، وتنتمي إلى هذه العائلة، واسمها الصغير: نازك. وهم يتباهون بذلك أحياناً. أما بدر شاكر السيّاب، فقد كان قارئاً وفياً لشعراء كبار منهم: ييتس و ت.س. إليوت. وكان مبدعاً كالمطر.

حلمنا أن ذلك اليوم انتهىقبل انتصاف الليل فأوى أبي إلى فراشه، منتظراً عودة أمي، التي تسلّلت إلى غرفنا، واستودعتنا قبلاً كثيرة، وخطفت من نومنا أحلاماً ترويها لوالد يحب إنجاب الأولاد، ويهوى أن يظل عاشقاً لامرأة، تنافسه في حبها.

أتراه يغار منا؟

هكذا انتهى حلم ذلك الليل الجميل.
إنّه حلم عادي، يشبه حياة عائلات عادية، تتكرر كل يوم، حتى إنّه من المستحيل أن يسمى ذلك الذي رأيناه في مناماتنا حلماً.

ومع ذلك، يا أصدقاءنا في المنعطف الثاني من القلب، يا أطفال أميركا الطيبين، فإن هذا الحلم مستحيل.

إن هذا الحلم العادي والبليد والفاقد لمخيلة النوم، لا يستحق أن يتنزه بين الكلمات، هذا حلم عادي، لا يليق باسمه... هذا حلم فقير الشهية، بلا إثارة، فاقد للهلوسة والتبعثر والبلادة المنطقية. هذا حلم واهن، ولكننا، نحن أطفال العراق، حلمنا به ذات يوم، كان حلماً استثنائيا لذيذاً ورائعاً، ولكنه مستحيل.

لأنه:
لا ينهض أطفال العراق من نومهم. دروب النوم مقفلة من جهات العتمة كلها. النوم لدينا، يفتح عينيه دائماً، ويغلقها لماماً.

نحن... كأننا ننام عندما ننام. كأننا نستيقظ عندما ننهض من نومنا. كأننا أطفال... ولكننا لسنا كذلك.

أصابع أمهاتنا مشغولة في غزل التعب. مرّ عليها يباس وتراب لا ينضب. آباؤنا، يستأجرون لنا وقتاً كي نراهم ولا نراهم.

هل تريدون روزنامة أيامنا؟
نحن لا نحلم إلاّ في الضوء. ولأن العتمة تحيط بأعيننا من الصباح إلى المساء، فإننا لا نرى أحلامنا.

نغسل وجهنا؟
بماذا؟
نبحث أحياناً عن الماء فلا نجده، وعندما نجده، في مكان قذر، لا نجد أيدينا، ويكون وجهنا قد فارقنا، لأنه لا يحب أن يجلس معنا. وجوهنا لا تشبهنا ولا تتعرّف إلينا.

ننظف أسناننا؟
فرشاة الأسنان صدئت. أما أسناننا فقد نبتت في أفواهنا خطأ. كان يجب أن تنبت في أفواه صالحة لاستقبال وجبة الصباح اللذيذة، ووجبة الغداء الشهية، ووجبة الحساء المسائية. أسناننا صفراء، تعرف أن تصطك برداً أو دنقاً أو غضباً أو مرضاً.
معجون الأسنان؟

ما هذه الرفاهية المستحيلة. فهذا الأنبوب اللين، ممنوع من دخول العراق. إننا نرى من شرفة العراق شعوباً طرية كالحبق، ورائحتها من صنوبر عتيق، وياسمين طازج. رجاء، لا تسألونا عن أفواهنا، فهي فاغرة، ولم تعبر بها ابتسامة، ولا نضحت منها فاكهة. متى تسمى الثقوب الملتوية أفواهاً؟

نحن، أطفال العراق، كنا تحت الحصار، وفي الحصار ولدنا، أو هكذا شُبِّه لكم.

في الواقع، نحن لم نولد. جئنا من مخدع زوجي، يمارس فيه الأهل الجنس كالبكاء. يربكهم جنس مخضب بالدموع. يهربون من جنس يابس ليمارسوا جنساً عليلاً. أهلنا ينامون بعيون مفتوحة ونعاس قانٍ. فنحن، لم نولد، إنما قُذفنا كومة من نفاية بشرية، تحت

سماء شحيحة، ولم تنبت في جنباتها حلمات أو نهود. سماؤنا نجوم رمادية، وغطاء من إسفلت.
من عاش منا، فبالصدفة.

طعام الصباح؟
المحظوظ من أطفال العراق، من يتصيد وجبة وحيدة. أحياناً، ننسى طعم الطعام. أحياناً، نمرّن شفاهنا على لحس شيء ما، ونمرن أصابعنا على ألسنتنا كي لا نفقد حاسة الذوق. نلوك الهواء. نفتش عن مناسبة لندرب أحناكنا على المضغ كي لا ننسى كيف نأكل يوماً ما... إذا حضر الطعام.

ننام؟
غرفنا أوسع من قبورنا قليلاً. عندما نبرد، نتدفأ على دموعنا، ولهاث أمهاتنا اللواتي يصمتن ببلاغة وعناد. لا يكثرن من التنهد، لأنهن قررن الاحتفاظ بطاقة البكاء والعويل، لساعات الرحيل الكثيرة. فالطفل في العراق، يولد ليموت. بينما، في كثير من هذا الكوكب، يولد، ويستمر بالولادة كأنه نهر يمتد ذراعاه إلى بحر بلا شواطئ. يولد الأطفال ويولدون. يكونون فرحة أهلهم. نحن، بؤساء بلادنا وبؤس أهلنا المذل.

الثياب؟
إذا كان الطعام يضل طريقه إلى فمنا، وإذا كان فمنا يصلح للعواء في خلاء هذا العالم، فإن أجسادنا رثة ومعوجة ولا يستقيم معها ثوب. في الصيف، نشعر بأننا أحرار جداً. ثيابنا ضيقة علينا. هي لم تكن لنا، ولكننا حصلنا عليها من مكان ما، بسعر رخيص، أو لشفقة مذلة، أو لأننا قمنا بأعمال شاقة، خدمة لثري طاعن في السرقة. في أحيان

كثيرة، نرتدي غباراً كثيفاً ومشعثاً. وفي الشتاء، تذبل أجسادنا، فتصير ثيابنا كالخيام، واسعة جداً، يجتاحنا البرد. وحدها الحشرات الصغيرة تمنحنا حناناً من دفئها، وتؤنس يباس مسامنا.

أحذيتنا؟
أحذيتنا من تراب. ندب على أقدامنا بشهوة الأربعة. ليس لأصابع أقدامنا شبيه. بلى، تشبه الحصى، ولا تحس كالحصى، ونعبث بها كالحصى. آخ كم يتوجع الحصى!

المرآة؟
هذا اللوح الزجاجي الأنيق؟
لا! من زمان لم نرَ وجوهنا في مرآة. نتجنب ذلك. واجهات المحال، مرآتنا الوحيدة، وخوفنا الكبير.

يا أطفال أميركا الطيبين، الذين يشبهون أطفال الأفلام في ليالي عيد الميلاد، الذين يشبهون أجراس الكنائس ليل رأس السنة، هل تعرفون أننا من عمركم، ولكننا نكبركم بأزمنة؟ نحن نكبر في السن سريعاً، في الخامسة، نبلغ الخمسين، وكل عام نكبر عشرة أعوام. لذلك، نصدّق المرآة عندما تحذف من عمرنا سنوات.

بعضنا، يكتب شعراً في ذاكرته، لندرة الورق. بعضنا كتب:
«نحب أجدادنا كثيراً، لأن شَعرَهم كالغمام. ولأن شعرنا من قطن السماء».

أَخَوَاتُنا؟
يا حرام. تعبن من البحث في صدورهن عن نهود. «لا تنبت جذور

في السماء».. ولا تنبت نهود في صحراء أجساد من رماد. شهوات تعرّت من جنسها. أعناق تدلّت على رغبات مقتولة. أخواتنا، إن تعرين، رأيناهن حصى أبيض أو أسمر، أو، رأيناهن، عندما يشتهين، يضاجعن الحجارة.

ومع ذلك، نذهب إلى المدرسة بصيغة الغائب. نحن، يذهبون، لأننا نوع نادر من الناس. قد يموتون جوعاً، وفي أياديهم كتاب. نعم. نقرأ، نتعلم، نحفر في رؤوسنا حروفاً قاسية، ونوقظ ذاكرتنا لتحفظ رائحة الوطن المغيب، قد تموت كل حواسنا، إلا حاسة الشم، يوقظها الحبر عندما يندلق على البياض. قد نستغني عن أفواهنا، غير أن في عيوننا شغف القراءة. ألسنا حفدة الأبجدية الأولى، وقد أوكلت إلينا تراجيدياً الأزمنة: أن نجوع كي يبقى رغيف الحضارة والفكر طازجاً؟

لا نبالغ، إن حزناً يستريح في حرجنا عندما نتعلم. ينتظرنا كي لا يبقى داشراً في البكاء. وأحياناً يفقأ الحزن عيوننا ويطالبنا بالدمع، خصوصاً، عندما نحضر إلى قاعة التدريس، ونجد أن عدداً من المقاعد بات خالياً، لأن الأطفال الذين كانوا معنا، غدرونا، وتركوا المدرسة باكراً، ومضوا ﴿عند ربهم يرزقون﴾.

الأطفال في صفنا، يقفون أمام الامتحان الأخير، بالصف. وواحداً واحداً، يغادرون المكان، مثل أجراس تبكي، مثل حقيبة تعبت من الذهاب والإياب، مثل لقمة لم تجد فماً، مثل فم تاه عن شفتيه.

لا تصدقون؟
في الحصار، مات من أطفال العراق فقط، ما بين نصف مليون ومليون. ونحن، بالمناسبة، لا نحصي موتانا. لا وقت لدينا إلا

للوداع. السلطة تحصي أحياءها الملتزمين بها. والعالم، يملك أدوات لإحصاء الأنفاس. وهؤلاء، أحصوا عدد الأطفال الموتى في العراق بسبب الحصار. لقد قتلنا الحصار بتؤدة. سحقنا بهدوء.

وبالمناسبة، نحن عاتبون على المسز مادلين أولبرايت، لأنها عندما بررت الحصار، أشارت إلينا كأننا ضريبة يجب أن ندفعها ولم تتأثر بدمعة. كان لها ابتسامة من أسنان... ولم نلحظ تأثيراً على شفتيها «الـ من» كاوتشوك أو بلاستيك.

أيامنا؟
أيامنا ليست عادية. أيامنا نتوءات من روزنامة فوضوية الأيام. من زمان، لم نعتدِ تعاقب الأيام. أين يقيم الأربعاء؟ ماذا بعد السبت؟ لماذا تتأجل الجمعة؟ من يختصر السنة فصلاً؟ لا نفكر بماضٍ، لا نحلم بمستقبل. السماء مقفّلة، والأزمنة تدور كفوضى ملائمة لملابسنا وأحذيتنا النادرة، والتي لا تتحاذى في سيرها على دروب تعصى على فهم إيقاع أقدام تائهة، تسير ببطء إلى أرصفة محذوفة.

لا تتكرر الأيام أبداً. لا ننعم بروتين ورتابة. نستيقظ على شيء ينعدم منا وفينا. وننام، ونحن نتعرّى من آخر ما لدينا، وليس لدينا ما لدينا. صرنا، في أزمنة الحصار، قطعاً للبيع. أجسادنا خردة معروضة للتجارة خارج العيادات الرسمية: «من يشتري كلية أمي؟». «كلية أبي معروضة للمناقصة». «من يفوز بكلية أختي؟ سنشتري بثمن الكلية، نادراً من البطاطا، وسنتنشق رائحته المقلية ونستودعها في أنوفنا لألف عام».

نحلم أن نموت من كثرة الطعام، بعدما سار العالم في جنازات

جوعنا، وهو يعد على أصابعه، مواعيد طعامه اليومية، وسهراته الاحتفالية، وكرنفالات الدسم.

أجسادنا؟
فتياتنا يرفعن ثيابهن ليسترن جوعهن.

أعراضنا؟
لم لا!!!
نبيعكم بلاداً بحبة أسبيرين».

أعراضنا؟
لن نخجل. إن الزبانية كالحرب، لا تفطر إلا بأجسادنا. ولا نشعر بعار، إذا أكلنا من من أثدائنا. سنابلنا لا تضحك قمحاً وحنطة، وحلمات الصبايا بلا أحلام. تعبرها الغيوم اليابسة. ترغب برعشة البكاء ولا تهتدي إلى دمعة. فمن نظف هذه السماء من مائها وعشقها؟ من سقاها خلاً وعلق فيها عيوننا وشفاهنا؟ من أباد الجنس التقي الجنس النقي، الجنس الطاهر؟

من؟
أجسادنا؟
إن للقمل تاريخاً في رؤوسنا، وللبق آثاراً خالدة في شراشف روحنا، نكاد نصير حضارة من الحشرات الفتاكة.

شهرتنا؟
قمع فائض، نصدّره، نستورده، وليس في البلاد غيره. يفاوضوننا على سجن أو قبر ونختار القبور بلا تردد.

آباؤنا؟
أشد ما يؤلمنا، آباؤنا الطيبون. الآباء الصامتون. يكتظ في عيونهم يأس بلا قاع وأسى صامت. آباؤنا، باعوا كتبهم كمن يبيع عرضه، كمن يبيع أولاده وزوجته. باعوا مكتباتهم لشراء خبز نيء وقليل من بقول وحفنة من حبوب، وأجنحة من فراخ، لم يحضر منها إلا ريش يتطاير في الفضاء مع جوعنا.

ليس من عادة الرجال أن يبكوا في العراق. يخفون في داخلهم خزاناً للمرارات. يتقنون الصبر حتى الثمالة، ويصرّون على قرع المستحيل. لكن الحصار أكل منهم رجولتهم، والسلطة قبضت على أرواحهم، ونحن، أتلفنا حنانهم.

كم شعرنا أنهم من دوننا يكونون أفضل حالاً. هم يستحقون نبلهم. ولكنهم عندما باعوا كتبهم، ماتوا، وصاروا يسهرون على ترطيب الليل بدموعهم السرية.

أمهاتنا؟
نذرن وقتهن لترتيب الجنازات. يشبهن مناديل الوداع. العيون باردة تلمع كذهب مفترس. يرتدين صمتاً مهيباً وجدائل من شعر صامت. يتكلفن حناناً ضرورياً لحفظ البقاء، ويمرغن الوقت بطلاء من الدعوات والصلوات. وعندما ينزوين في ثيابهن، يتعرين من حشمة ويمارسن طقس اللعنات. يقرعن باب الله المغلق على صدورهن كقبر.

أمهاتنا؟
لا، لسن أمهات. إنهن شخوص يتدثرن ليلاً يمد أطرافه من قامة

البكاء. بلى! يعملن في الأرض الكالحة. يغسلن إذا حضر الماء، ويطعمننا عندما يعود السندباد. ولا يعود.

لسنا عائلة من أب وأم وأخوة وأخوات. نحن كومة من حصى، قبضة من موت حي. نلتقي في بيت إذا حان وقت الوداع، فعمرنا لفافة تبغ تحترق، أو تفلة تقع يابسة كقشة رخيصة.

عذراً يا أطفال أميركا، ما كنا نريد أن نلفت شفقتكم إلى بكائنا. ولا نطمح بأكثر من أن تعرفوا فقط، أننا نحبكم، فلماذا يكرهوننا؟ لماذا يكرهوننا إلى حد القتل؟ نأمل أن يدركنا جوابكم قبل فوات الأوان.

الحلم الثاني

صورة عائلية

ذات يوم آخر، تشابهت أحلام أطفال العراق: إنهم يلونون النجوم في سماء زرقاء، يصوبون أصابعهم إلى درب التبّانة وأبراج الحظوظ، والسماء سرير واسع من زرقة محفوفة بأحلام مذهبة.

كانوا يعدون النجوم، عندما رأوا أطفال أميركا، تقريباً كل أطفال أميركا. هم ينهضون من نوم أنيق. يهبطون درجاً منمقاً، يعزف تحت أقدامهم الرطبة الخفيفة الظلال، صريراً يشبه خشباً يضحك من وطء الحفيف. فالطابق العلوي من المنزل مكرّس لقداسة النوم وحراسة الأحلام.

يا أصدقاءنا الأطفال، إننا رأيناكم ذات يوم في منامنا. كان حلماً رائعاً: تثاءبتم فيما كانت عيونكم تفتح شبابيكها المرصعة بسحابة

صباح طفولي. كانت المائدة حاضرة، عصير طازج، «كورن فلكس» في علبة مزدانة بألوان كثيرة ودعايات وهدايا. مسّت أصابعكم فاكهة الصباح فارتعشت شوقاً، وَهَمّت بالحديث فيما كنتم ترتشفون كلاماً إنكليزياً جميلاً.

رأيناكم. وكان آباؤكم يراقبونكم بفرح مسرف، ينتظرون قدوم «الأوتوكار» لينقلكم إلى مدارسكم المنمّقة والمبنية من خشب فخم وحجارة منسقة الزوايا، ذات أضلع مستقيمة.

رأيناكم تودعون أمهاتكم على الأبواب الخارجية، يقبلنكم على الجبين، ثم تعودون إلى البوابة الكبيرة، لمداعبة كلب حنون، يلوح بذنبه فرحاً، كأنه يعرف أمثولتكم عن ظهر قلب، ويودّ لو يُسَمّعها عنكم عندما تعودون، بصوت مثير للضحك.

رأيناكم تدخلون صفوفاً مزدانة بشاشات ورسوم وحركات. تدرسون الحساب واللغات والرسم، وتتدربون على رياضات لا نعرفها في بلادنا.

رأيناكم. كنتم في غبطة عندما حان وقت الطعام. تأكلون ما تشتهون. وأحسسنا في أحلامنا، أن رائحة طعامكم لذيذ، قطعة اللحم أجمل من فتاة، والبطاطا المقلية أشهى من سكّرة، خصوصاً عندما تعمّد بـ«الكاتشاب» الأحمر.

ما كان أجمل وجوهكم عندما تلطخت بـ«الكاتشاب»، وتزينت بزغب الشوارب وقد لاحت من خلالها ضحكات تشبه خلاخيل تتراقص في معاصم الفتيات، أو سحنة مهرج تلاحقه كرة رأسه فوق خشبة المسرح!

راقبنا ألعابكم. المدى أمامكم بلا حدود. كنتم أجنحة تحوك فضاءها. كنتم متعة الوقت. من دونكم، تتحول المدرسة إلى كهف مهجور، وتهجر الأعشاب حدائقها، وتهاجر الطيور سماءها. أنتم جنة الأرض. وكم كان فرحنا بكم كبيراً. إذ، ليس أجمل من أن ترى أطفالاً سعداء، فالجنة تحت أقدام الأطفال.

المعلمة تتقن الغناء، ولصوتها غنج يمور بالشعر. المدرّب الرياضي يتقن إيقاع الجسد، يختار لكم فوزاً أكيداً، ويدربّكم على الانتصار، ويمنحكم ثقة تورث النجاح.

الكرة جميلة، السلة أنيقة، التمريرة ساحرة، وضحككم يشبه صيفاً من دعابات سخية، وحركات أيديكم، كأنها لوحة فنيّة، أو غابة من أشجار الكرز.

ومرّ يومكم كأنه شريط سينمائي.
«باربكيو» في حديقة تخصّصت بأعشاب وأشجار وشتلات وزهور. توزّعت فيها مقاعد خشبية ومراجيح مزاجية، ومياه تلهو نقاطها قفزاً على أوراق تدلّت لتغتسل كعارية تستحي من مسامها الناضجة.

رائحة الشواء؟ العائلة اصطفت في دخان المكان، ومدت أناملها إلى قطع مصوّبة إلى شهية تندلق من شفاه غزيرة الطعم. الموسيقى تنبعث من أفواه تلعوس لذة. الإيقاع «راب» من لقمة تتآخى مع لعاب مشتاق. والرقص يتناوب على عيون ترمق الشواء والمثلجات وكأسك يا أبي. بصحتك يا أمي.

لا نزال نرى شريطكم السينمائي، هذا الذي رأيناه ليس تمثيلاً. أنتم

لا تمثلون. هكذا أنتم، أطفال من وجوه طافحة بحمرة سخية، أطفال بحناجر تردد آخر مبتكرات الغناء التي لا يحبها آباؤكم، لأنهم من جيل ألفيس برسلي.

قبيل العشية، عدتم إلى غرفكم الوثيرة. هنا، على الجدار، صورة لعملاق كرة السلة مايكل جوردن. إنه عبقري التصويب. إنه موسيقى راقصة على الحلبة. لجسده فتنة العضلات وسمرة تغار منها الألوان. وهناك صورة لمادونا وأخرى لمايكل جاكسون، وفي الركن، إطار يجمع صورة العائلة: أب وأم يحتضنان عائلة من أطفال.

درستم ما تيسّر، كتبتم ما يجب، واتصلتم بالهاتف الخلوي برفيقاتكم ورفاقكم. إنكليزيتكم من لثغ مطاطي، فيها استحقاق جمالي وابتسامات.

وقبل المساء تشيطنتم حتى تعبتم، ثم لم تتعبوا.
كم كان المشهد رائعاً عندما عدتم إلى بيوتكم وطبعت أمهاتكم على جباهكم قبلة الرضى والطمأنينة. أما عندما فتح الآباء حقائبهم عند العشية، فقد كانت تخبئ هدايا صغيرة، لمناسبة أعياد ميلادكم: هاتف خلوي صغير، سي. دي. لآخر أغنية. كمبيوتر محمول.

أي فرح هذا، أن تكونوا جميعكم وفي يوم واحد، قد فزتم بورقة اليانصيب الرابحة.

لكم كنتم سماويين! ما أروعكم كالفراشات تطيرون غزلاً ومتعاً!
في ذلك اليوم، حلمنا أيضاً، أن آباءكم مرّوا على بائعي الزهور،

واشتروا باقات ورد تشبه سلالم من النعم، لتقديمها لأمهاتكم. إنه من اللائق تكريم الملائكة عندما يتخذن شكل الأمهات.

في ذلك اليوم، حلمنا أيضاً، أن أمهاتكم زرن محلات العطور، فاشترين لهن عطراً، ولآبائكم عطراً منافساً.

وعند المساء، ساد صمت ودود، ارتاحت الهدايا في القلوب، وتلألأت رائحة عائلية في فناء البيت، كأنكم في عيد.

مساءً، وبعد عشاء شهي، ذهب الجميع إلى عالمهم السحري: أنتم كنتم تختارون أحلام هذه الليلة، وآباؤكم يصطحبون أمهاتكم لحضور فيلم مناسب، لعله صيغة جديدة لروميو وجولييت.

تفرجنا على هذا الحلم طوال الليل. ولما فازت نجمة الصبح بمطلع السماء، كنا على وشك مصافحتكم وعناقكم. ولكن الأحلام تنتهي فجأة، فنحمل إشاراتها معنا، وترتسم ملامحها على جباهنا.

عندما روينا أحلامنا لأهلنا، قالوا: شيء رائع. إن هذه الأحلام ليست مستحيلة، إنها حقيقية جداً. ولما سألنا بإلحاح عن السبب، قالوا: يستحق الأطفال في كل العالم أن ينعموا بجنة الأرض.

فرحنا. فركنا أصابعنا. لم نحسدكم على معاطفكم ومدارسكم ولعبكم وحدائقكم وهداياكم. أحببناها لكم وعندكم، وأحببناكم كما أنتم.

حزنّا كثيراً فيما بعد، عندما اتهمونا بأننا نحسدكم، وأننا نحقد

عليكم، وإننا نريد بكم سوءاً. إذ كيف نحسد من نحب، وكيف نحقد على نعمة فازت بكم لتكونوا ضيوفها، وكيف نريد سوءاً بمن هم مثلنا؟ أليست الطفولة قداسة أرضية أحياناً؟

حزنّا، لأن تلك التهمة لم تكن صحيحة، ولأننا شعرنا بأن علينا أن نبرهن لكم إننا لسنا أشرارا وأن حبنا لكم حقيقي جداً، لا لبس فيه. طاهر كعين ماء، صاف كملاك يتنزه في السماء، تستحقونه لأنكم براءة بتول، وشيطنة مرتبة، ونهارات تملأون بها قلوب الأهل بالإطمئنان، لأنكم أغنية عيونهم ودهشة همومهم وأحلام نومهم.

كيف يتهموننا بالكراهية؟
لا نقيس بؤسنا بفرحكم. لا يُنغِّصنا أن تكونوا سعداء. أنتم تستحقون ذلك، يؤلمنا أنْ تكونوا مثلنا. لا نرغب بأن يشبهنا أحد أبداً. ولا نريد لقمة أحد. نسد جوعنا بيدنا. لا نريد معطف أحد . ندفئ برد أجسادنا بحلم صيف. لا نريد بيت أحد. نسقف عراءنا بسماء أغمضت عينيها.

لماذا يتهموننا، نحن أطفال العراق، بأننا لا نحبكم؟ يؤسفنا أننا مضطرون أن نبرهن لكم، أننا على الأقل، لا نكرهكم.

هل تظنّون أننا نفرح إذا أصبتم بزكام؟ هل تتوقعون أن نمنع عنكم طعاماً إن جعتم؟ هل يعقل، نحن الأطفال، ألا نمسح دمعة اختارت أن تحزن على وجناتكم؟ هل تصدقون أننا نتمنى الأذى لكم؟

حرام. لا تصدقوهم، إننا مستعدون أن نسرق الدواء لمداواتكم، أن نسهر على وجعكم حتى الصباح، أن نغسل عيونكم بالندى، أن

نطرد المرض بالقوة، أن نصبح كلنا أطباء صغاراً.

حرام. لا تصدقوهم. إن جعتم، صرفنا ما في جيوب الجميع كي نأتي بلقمة تتناولونها. عار على بشر أن يجوع قربهم أطفال. عار على عالم، بهذا الثراء، أن يترك مكاناً لإقامة الجوع، فلا يعرف الجوع إلا من يكابده.

حرام. لا تصدقوهم، لا يخطر ببالنا أن نحسدكم.
آلاتكم؟
إننا نمني النفس بالحصول عليها. نحلم بحاسوب نتصل بواسطته بكم.

مصانعكم؟ سياراتكم؟ أدويتكم؟ مزارعكم؟ جامعاتكم؟
لا تظنّوا ولو لحظة، أننا نغار منكم. أننا كنا نكره أسلحتكم. وكم يؤلمنا، أنْ يجرد أحد سلاحه، ويدخل مدرسة ويقتل زملاء، كما حدث لزملائكم في «كولومباين».

يا إلهي! أي حسرة أصابت الأمهات؟ أي غصّات توالت في الصدور؟ أي موت هذا القتل البربري؟

عرفنا أن مايكل مور، سجّل فيلماً وثائقياً عن تلك الحادثة المأساوية، واستحق على فيلمه جائزة الأوسكار في أميركا، وجائزة السيزار في فرنسا. إنّه رجل طيب. إنّه طفل كبير، ويحبكم ويدافع عنكم. ونحن مثله أيضاً، لا نريد أن يصيبكم ما أصابنا، إننا نكره الأسلحة، ولعلكم مثلنا أيضاً، لا تريدون أن تكونوا قتلة، ولا تريدون أن تكونوا ضحاياه.

حرام عليهم. ألم يكن هؤلاء أطفالاً يوماً، أم أنهم كانوا في طفولتهم مسوخاً بشرية؟

لا تصدقوهم أبداً. إننا نحرس سعادتكم برموش أعيننا. ولا نرغب بأن يعكر أحد عليكم وجه السماء. إننا من دين واحد، نحن الأطفال، هو دين الفرح. فإن حرمنا نحن منه في العراق لأزمنة قاسية، فإن زمناً آخر، قد يأتي يتوّج فيه أطفال العالم ملوكاً للسعادة والغبطة واللذة. ومبارك الزمن الذي تمحى فيه الدموع من عيون الأطفال. مباركة الألوهة التي اشتهت أن تصير أنساناً، فأخذت شكل طفل يدعى يسوع المسيح.

سبحان الله! لم تكفه نعمة السماء، فاختار نعمة الطفولة، وتجسّد فيها.
فيا أطفال أميركا الطيبين، إننا نحبكم، فلماذا يكرهوننا؟
لماذا يـ ق ت ل و ن ن ا؟ رجاءً، اسألوهم، وبلغونا، قبل فوات الحياة.
لا تتركونا نقرأ في كتاب الحاضر إلى الأبد.

لأننا نقول:
«هذا زمن
يتفتح في رحم الأشلاء»
لأننا نكتب:
«هذا زمن شاهدنا فيه
كيف يربى الموت الأرض،
وكيف يخون الماء الماء».
(أدونيس).

الحلم الثالث

غلط. غلط. غلط!

ذات يوم آخر، رجع أطفال العراق من نومهم. أغلقوا ستائر النعاس، والتقوا ما بين دجلة والفرات. كان القمر قد سهر الليل بكامله، يسرح أشعته فوق مياه دجلة، ويتعرى أمام إغراء الفرات. كان ذلك الليل شاعراً يحمل في قصيدته أزمنة الكلام.

قالوا: لا نعرف كيف التقينا هناك. لعلّ ذلك الحلم تدفق على مخيلتنا، ودلنا على أول العودة. يومذاك، حلمنا جميعاً، حلماً تجاوز كل الأحلام اللامعقولة. كان حلماً يليق بالدنيا.

عندما التقينا على حفافي ما بين النهرين، وعرفنا أن أحلامنا تتشابه، قررنا أن نطلعكم عليها، فأنتم، تسكنون معنا، منذ مدة، في المنام.

فيا أصدقاءنا الصغار في أميركا، حلمنا أننا قضينا يوماً بقامة قرون. حلمنا أنكم أتيتم لزيارتنا في بغداد. قلتم لنا: إن دعوة وصلتكم منا للإقامة عندنا، ولو ساعات. لا نعرف إن كانت أحلامنا تتصل بأحلامكم، وأن حبلاً سرياً من أمومة كونية واحدة، يوطد اللغة بين أطفال الدنيا. لعلّنا كنا نرغب في ذلك، ولم نفصح، وربما لصعوبة تنفيذ هذه الرغبة، ولم نفعل.

حلمنا أنكم بيننا، صبياناً وصبايا، مثلنا تقريباً، باستثناء سحنتنا المرتاحة إلى سمرة يستطيبها النخيل عندنا، ويشتهيها أهل الشقرة في بلاد بعيدة. وجوهكم تشبه قرابين القداديس، وعلى خدودكم وشم من نبيذ أسطوري.

كان فرحنا بكم فوق طاقة القلب ورقصنا من الداخل، فيما التزمنا باتزان عاطفي إزاءكم في سلوكنا، فصافحناكم، وكم كانت لغة المصافحة حميمة ومفهومة!! عرفتمونا وعرفناكم. عندما توضع يد بيد، فهذا يعني أن مشواراً واحداً قد بدأ، وأن رحلة سنصل فيها إلى النهاية السعيدة.

فاجأتمونا بأسئلة محرجة: من تكون عشتار؟ من عناة؟ من جلجامش؟ ما بابل وسومر وأكاد وأشور؟

قلنا لكم: متى تعرّفتم إلى هذه الأسماء؟ ولكنكم لم تجيبوا عن أسئلتنا الودودة. بل ألححتم علينا بأن نذهب معاً إلى كل هذه الأمكنة، لنطوف في تاريخ تريدون أن تلمسوه وإلى شعرٍ ترغبون في تصديق عبقريته.وطفنا معاً إلى ما قبل الميلاد، تعرفنا معكم إلى أشور بانيبال، وجلسنا في قصره واستمعنا إلى حديثه، واستغربنا أن

يستقبل ملك عظيم أطفالاً صغاراً، فمن عادة الحكام أن يعيشوا مع حاشيتهم في كواليس معتمة، ويحوكون الدسائس وينفذّون الاغتيالات ويمارسون هواية الحرب.

أدهشنا هذا الملك المثقف الشغوف بالأدب والحكمة، ولم يكن يبخل في طلبها ونشرها: أرسل علماء في بعثة إلى بابل العريقة ليستنسخوا ما جاء في الأدب السومري من شعر وعلم وأدب، ونقلت البعثة ما استنسخت من وثائق كتابية إلى مكتبة آشور بانيبال في نينوى العظيمة.

ولما زرنا تلك المكتبة، لم نجد كتباً. يا الله! لقد نقلوا حضارات وإبداعات وأشعاراً وملاحم وأساطير على مجموعة كبيرة من الألواح الطينية المكتوب عليها، بأول الأبجديات، وبالخط المسماري (وهو سومري الأصل).

ولم يجد الملك الوسيم في أسئلتكم تطفلاً، بل وجدناه ولعاً بها. ولما سألتموه عن جلجامش، تعجّب منكم وأدهشه فضولكم وسألكم: أنتم الأطفال الأميركيون.. تعرفون جلجامش؟

علِم منكم أنكم سمعتم عنه من معلميكم، وأنه مترجم إلى لغات كثيرة. شعرنا بفخر كبير. نحن عالميون أيضاً من أزمنة بعيدة، ولسنا نعيش في صحراء من جِمال، ولسنا كما تصورنا أفلام الدعاية الأميركية، بدواً رُحَّلاً، وأنابيب نفط، وقبائل تفتك غزواً، وجهلاً يتنقّل كالوباء.

نيتنا في إظهار مشاعرنا الحضارية كانت محاولة للتعريف بأننا لسنا

نشبه أبداً أولاد التلفزيون. فعرب الأفلام ليسوا عرباً ، ولسنا لقطاء أو أطفالاً للفرجة في مواسم السياحة.

قال لكم الملك: تعالوا إليّ، سأريكم ما جمعته في مكتبة الدنيا ملحمة جلجامش وملحمة الخليقة وملحمة عشتار ونزولها إلى العالم السفلي. وكانت جميعها ترجمت إلى اللسان البابلي.

وأخذ لوحاً من طين وقرأ علينا بصوت مسرحي يتمتع بفخامة وبلاغة:

«يرى كل شيء
يرى تخوم الدنيا
حكيم عليم
يعرف كل شيء
يخترق حالك الظلام
يدرك الأسرار
يعرف ما يخفى على الناس
جاء بأخبار الأولين
بأخبار ما قبل الطوفان
...
بنى أسوار أرك، هيكلها المقدس
بنى أسواراً عجيبة لم يبنِ مثلها الناس
...
سأنسحب تاركاً السفينة على الشاطئ»...

فرحنا جميعاً بعبقرية جلجامش، ولما همت حاشية الملك بإخراجنا من قصره، نهض أشوربانيبال عن عرشه وقال «دعوا الأطفال يأتون إليّ».

كان يوماً أطول من دهر، ولم تضجروا ولم تجوعوا، كأنكم جئتم لصيام اختياري. أحببتم قصة الخلق، ودهشتم لكون قصة آدم وحوّاء، ليست وحيدة:
فـ «عندما لم يكن للسماء اسم بعد
عندما لم يكن للأرض تحت السماء اسم بعد

كان هنالك ثالوث مقدّس:
إبسو: الغمر العظيم: مجتمع المياه العذبة.
تيامات: الغمر العظيم: مجتمع المياه المالحة.
ممو: الضباب، الروح المرفرفة فوق المياه.
اضطرب الماء: امتزج العذب بالمالح

فولد الكون:
من الزبد كانت الأرض
من الأمواج كانت الجبال
وما تطاير من الماء ارتفع سماءً فوق سماء».

رائع هذا الخلق. جميل أن تكون الأرض من زبد والجبال من أمواج والسماء من رذاذ ناعم.

سألناكم: هل تريدون أن تقيموا اليوم بكامله في ما قبل الميلاد؟ ابتسمتم، وفهمنا أن بكم نهماً لا ينضب، فأكلنا من مائدة إمتدت ما بين النهرين. خدمتنا عشتار، وقدمت لنا فاكهة من جنّة، يُقال إنها أفضل من جنات موعودة، وذبحوا لنا من كل زوج حي، كي نتذكّر. وشبعنا إلى دهر الداهرين. طفتم معنا في التاريخ، ثم عبرتم أزمنة من الشعر والعطاء والعلم.

سألتمونا عن أسماء كثيرة. يا إلهي! كأنكم ابتلعتم قاموس الأسماء، وحفظتم تضاريس الأمكنة، وترغبون في استعادة الماضي.

طلبتم منا أن تزوروا بيت الحكمة، فمضينا معاً إلى المأمون، في العصر العباسي، أدخلكم الكتاب إلى ما يُشبه الجامعة اليوم، بل أكبر قليلاً.

هذا أرسطو بالعربية، وأفلاطون باليونانية، وأفلوطين بالسريانية، وإسحق بن حنين يترجم، والبتاني يعمل في الفلك، وجابر بن حيان في الكيمياء والخوارزمي في الجبر، وابن الهيثم في البصريات، والبيروني في السوائل، والموصلي في الموسيقى.

قال لكم المأمون إنه حلم حلماً جعله ينتقل من حال إلى حال. خليفة المؤمنين، يرى أرسطو في منامه فيناقشه ويسأله ويخرج من بين يديه إلى أن اعتبار العقل هو الأول.

كانت بغداد في ذلك الزمان عاصمة الدنيا، يؤمها طلاب العلم من الممالك كلها. وكانت اللغة العربية، لغة عالمية، يكتبها الفارابي التركي، وابن سينا الفارسي، والخوارزمي من خوارزم، وعلماء وفلاسفة من سمرقند...إلى نهر جيحون في الصين، والأندلس في شبه الجزيرة الإيبرية.

أحياناً، أشعرتمونا بأننا مقصرون اليوم عن ماضينا. وبدوْنا أمامكم كأننا نتباهى بشعر أجدادنا وجداتنا. ذلك ليس صحيحاً. وفهمتم ذلك جيداً، عندما قرأتم بدر شاكر السياب وعاشقة الليل، وبلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي.

خجلنا منكم لما سألتمونا عن أماكن إقامة هؤلاء، أو عن مقابرهم. آخ من المنافي. آخ من القهر. آخ من الظلم. آخ من الاستبداد. آخ من أعمار قصفت تحت وابل سلطات طاغية تكدّس السلاح وتقتلنا به.

وخجل أطفال أميركا كثيراً، عندما عرفوا أن هذه السلطات كانت تتربى على سلاح أميركي، وتحظى برعاية أميركية. قلنا لهم: لسنا من هذا العالم. قالوا : ونحن مثلكم، لسنا من هذا العالم. وهكذا التقينا في عالم واحد يجمعنا ولا يفرقنا.

اتسعت حدقات الحلم: لم نتعب من التجوال ولم يتعبوا من السؤال. أحبوا السندباد ورحلاته المديدة. حكاية علي بابا والأربعين حرامي. علقوا على الحكاية تعليقاً ظريفاً: «يجب أن يكونوا أكثر من أربعين» كي تكون الحكاية أكثر مطابقة للواقع.

الملاعين، كانوا أذكياء وظرفاء، ولا يشبهون الأطفال الذين يصورونهم على الشاشات: أطفال برسم الدعاية لمطاعم «ماكدونالدز» ولمشروب «الكوكاكولا». بالطبع، هم يحبونها، ولكنهم ليسوا بطوناً فقط، بل إن لهم أحاسيس ومشاعر وأفكاراً نبيلة. وهم ودودون ويحبون مضيفيهم. هكذا أشعرونا، وكانوا صادقين.

تمتعوا بحكايات أبي نواس، أعجبتهم طفولته الخمرية. سمعوه ينشد طعم النبيد:

صفراء تضحك عند المزج من شغب
كأن أعينها أنصاف أجراس

لـولا مـداراة حـاسـيـهـا إذا اقـتـربـت
مـن فـيـه لانـتـبـهـت مـن فـعـلـة الحاسـي

وعندما عرجوا على متصوفي بغداد سمعوهم يصلون شعراً، كالقديسة تيريزا التي خطبت ليسوع، وكرابعة العدوية التي طوبت فراشها لله. وكم كانت قلوبهم صافية من الكبرياء عندما سمعوا ما حدث للمتصوف البغدادي بشر بن الحارث: ذهب رجل إلى بشر وقال: إني رأيت رب العزة في المنام وهو يقول لي: «اذهب إلى بشر فقل له: يا بشر لو سجدت لي على الجمر ما أديت شكري فيما قد بثثت لك، أو نشرت لك بين الناس. فقال له: أنت رأيت هذا؟ فقال: نعم رأيته ليلتين متتاليتين. فقال بشر لا تخبر أحداً. ثم دخل وولى وجهه إلى القبلة وجعل يبكي ويقول: اللهم إن كنت شهرتني في الدنيا ونوهت باسمي ورفعتَ من قدري على أن تفضحني في القيامة الآن فعجل في عقوبتي، وخذ مني بقدر ما يقوى عليه بدني». ولم تزعجهم بهورة المتنبي، وانقلبوا علىأقفيتهم ضحكاً من هجاء ابن الرومي للبخيل والأحدب.

عند العشية، قالوا لنا: أما حان وقت الصلاة بعد! وصلينا. بعضهم وبعضنا ذهب إلى الكنائس. رسموا إشارة الصليب، وصلوا «الأبانا» و«السلام عليك يا مريم». وبعضنا مضى إلى الجامع، بسمل وحمدل وتلا من الآيات غذاء للروح. وشهد العراق أكبر صلاة، امتدت من النجف وكربلاء، إلى البصرة وبغداد، والجميع يتلو «الله أكبر»، وباسم الآب والابن والروح القدس، إلى دهر الداهرين. صدق الله العظيم.

كانت صلاة حقيقية بلغات ولهجات تليق بالله وأنبيائه. وفي لحظات صار العراق يشبه السماء.

قلنا: إنهم يريدون أن يعرفوا كل شيء عنا، فلماذا لم يسألونا عن المسيح، هل يظنون أننا لا نعرفه، وهل يعرفون الإسلام؟

باغتناهم بادعاء فصيح، أننا نعرف المسيح ونكرّمه، فقالوا: «نعرف ذلك. وأجمل ما قيل في مريم العذراء، جاء في سورتها. من يتلو لنا آياتها علينا بالعربية، لأننا قرأناها بلغتنا؟».

وتبرع طفل مرنّم:
﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً* واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً * قال إنما أنا رسول ربك لأهبَ لك غلاماً زكياً * قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيّاً * قال كذلك قال ربك هو على هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضّياً * فحملته فانتبذت به مكان قصيّا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسيّاً * فناداها من تحتها ألّا تحزني قد جعل ربك تحتك سرّياً * وهُزّي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنيّاً * فكلي واشربي وقَرّي عيناً فإما تَريَّن من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيّا﴾.

وخشعنا، تسللت إلينا نعمة القشعريرة، وبدونا كأننا لسنا من هذا العالم.

كان هذا حلمنا الثالث المستحيل، الحلم الباسق الذي لا يصدق. ثمة أحلام أقصر قامة لا تجد طريقها إلى الحكاية. ثمة أحلام بدائية

جداً غير قابلة للتحقيق. فالتاريخ يعزينا ولكنه لا يطعمنا قمحاً، ولا يعيد كرامة مسفوكة بالحاجات المذلة، ولا يردّ إلينا نبلاً نحتاج له قوتاً لبقائنا كبشر.

لا، لم يكن ذلك الحلم ممكن التصديق، فلا نحن نستطيع دعوتكم لزيارتنا، ولا أنتم تعرفون العراق، ولا نصدق حرفاً واحداً من هذا الحلم المشتهى. لا نملك أكثر من قامة تتآكل. وبلادنا، بكل تاريخها وحضاراتها وأمجادها وأضوائها وشعرها وعلمها، تحوّلت إلى حصيرة صغيرة، نمسّد عليها تعبنا وضنانا. ولا وقت للأحلام، ولا تزور بلادنا القديمة إلا عندما نشعر بالمهانة، فنتشبث بها. نجعلها خشبة خلاص مؤقت. حبة مهدئ. مورفين. بهذه المنشطات نستعيد حضورنا.

غريب أن نحضر في الماضي، وأن نُلغى في الراهن، وأن نُحذف من المستقبل.

لا، هذا حلم ما فوق المستحيل. فلا أنتم يا أصدقاءنا تعرفوننا، ولا تعرفون عن العراق، إن سمعتم به، إلا ما حدثكم به أهل السياسة عندكم. إنّه طاعون الحضارات. هكذا يصورونه. هو «حالة حصار» دائم، من الخارج، ومن الداخل كذلك.

ولنفرض أن قلة منكم ستحضر، فمن أين تأتون وكيف؟ سماؤنا ملغاة، وحدها الشمس تسكن فيها، وتكوينا بلهب لا ينضب. طرقاتنا مديدة وشاسعة، ومسيجة بالعيون وكلاب الحراسة. والقادم إلينا متهم، والعائد من عندنا جاسوس.
غلط. غلط. غلط.

بلاد في حالة وباء. زوّارها يعودونها لأنها مريضة ولا شفاء.
غلط.

نحن نفط فقط. نفط يثير شهية كونية. نفط بلا تراث. نفط ينسكب في أنانيب لا نشعر بشرايينها. نفط يقتنيه أهل اللعاب ونشاوى الثروة.

نحن نفط فقط. وحدها الشركات تعرف كيف تتهمه، وكيف تعيد صياغته وتأليفه وتسجيل براءة امتلاكه الأبدية.

نحن شعب بائد، قرب نفط لا يسعفه تاريخ، ولا يحامي عنه جلجامش، ولا تنهض إليه عشتار. فالتاريخ متروك لنا. أما نفطنا، فمتروك علينا، ومتروك ضدنا، ومفتوك بنا من أجله.

كل آلهة العراق، الآلهة القديمة والجديدة، لا تساوي ألوهة النفط.
كان بودنا يا أصدقاءنا الأطفال، أن ندعوكم إلى زيارتنا، إلى الإقامة في بغداد الرشيد، لا بغداد التماثيل الهمجية. بغداد الشعر والفن والناس الذين يكدحون، والأطفال الذين ينضجون كالعنب على دوالي الحروف والأنغام. كان بودنا أن تحضروا لنعزف لكم رقصاً لا ينتهي، فيفرح بكم دجلة، ويعبطكم الفرات، وينحني النخيل ليلامس شعركم ويداعب غرائزكم الفضولية، ويهمس في آذانكم شغف الرطب إلى شفاهكم.

كان بودّنا أن تأتوا إلينا، وتدخلوا بيوتنا، وتتعرفوا إلى كرم عربي، وصدور سخية بالاستقبال.

ولكن،

كان بودنا أن نمثل معاً مسرحية. وكم سيسر بنا جواد الأسدي، الذي أشتقنا إليه منذ أعوام. كم سيسرّ عندما يعرف أننا نمثل غير «الاغتصاب» المزدوج، لفلسطين والعراق، وكم سيسر لأننا نشبه خشبة يعتلي فوقها نص وجسد ويكافئه أهل العراق بإقامة سعيدة، وليس بإقامة في المنافي. يا الله. ستتعرف يا سركون بولص إلى «مدينة أين» في بغداد.

كان بودنا أن نرتّل معاً في مدارسنا: «الله أكبر». هذا الدعاء الذي يقرّبنا من السماء. أنتم اليوم، عندما تسمعون هذا الدعاء، تظنونه عداءً لكم، لأنه صار يسكن في القبضات المكلومة والأصوات المفجوعة والبؤس الحافي واليأس المدنف، أكثر مما يقيم في حنايا القلوب.

لا، هذا الدعاء الإيماني، ليس اعتداء، ولكنه يكاد يصير، لأنه عدة بقائنا، ولو بالوهم، على ناصية الانفعال.

كم يؤلمنا أن يصير إلهنا ضدكم، وأن تكون مقدساتكم ضدنا. كم يؤلمنا أن يُنكر العالم علينا إسلامنا ومسيحيتنا في العراق، وأن ينظر إلينا، كوباء فتاك: ديننا إرهاب. شعبنا إرهاب.

لم يصلب شعب كما صلب شعبان : شعب في فلسطين وشعب في العراق.

فيا أطفال أميركا، لسنا نحمّلكم مسؤولية قادتكم. دمنا ليس عليكم ولا على أيديكم. إنما نود أن نسألكم بإلحاح: إننا نحبكم كثيراً، فلماذا يكرهوننا، ولا يحبون إلا نفطنا؟

زيارتكم لنا في أحلامنا تطعمنا خبزاً طيباً من ماضٍ يابس. كان بودنا لو تأتون لزيارتنا في وقت مناسب لا يكون فيه العراق سجناً أو قبراً. في وقتٍ تعثر فيه الحرية علينا، فتفتح لنا الطريق إلى المستقبل.

لماذا يصرّون على ماضي العراق الحضاري؟
بابل: معلقة الألم وأسوار العذاب.
نينوى: قبر يتسع لشعب يتسوّل ضوءاً أعمى.
بغداد: كتاب يتكرر فيه مشهد الحلاج، يسفك دمه ويفتت جسده ويرمى في الماء.
الكوفة: تراث من زياد بن أبيه، و«إني أرى رؤوساً قد أينعت».

لماذا يصرّون على إبقائنا أسرى دلك الماضي؟ إننا لا نراه جميلاً. هو ثقيل على أكتافنا الهزيلة. هو عبء لا طاقة لنا على احتماله. ولو كان هذا التراث من تمر لأكلناه وشبعنا. من يجوع يأكل آلهته.

عراق سحيق. روزنامتنا تسير إلى ما قبل التاريخ، إلى أبي الشرائع حمورابي، ونحن نعيش في غابة، وحريتنا تتربى على مائدة القمع، ومدربّوها يتقنون تسليحها بالفتك والتدمير.

عراقنا الجميل، الـ من بشر، الـ من إنسان، الـ من شعر وحنان، الـ من منزل وإنجاب، الـ من حب وعطاء، الـ من إبداع وفن، الـ من صناعة ورجال، الـ من زراعة ونساء، الـ من اكتشاف ومصير، الـ من حرية وخبز... هذا العراق مقذوف إلى الجحيم. وغداً تحضر جحيم أخرى، يقال عنها احتلال.

عراقنا الجميل عراق من عدم.
لقد جئتم إلى تاريخنا يا أطفال أميركا، ولكن حكومتكم ستأتي إلى حاضرنا وتأخذ منا المستقبل، فماذا يبقى لنا؟

الحلم الرابع

دعوا الأطفال يأتون إلي.. في فلسطين

ذات يوم رابع، رأينا وساداتنا قد استيقظت باكراً، وخرجت من الأبواب، وانتشرت في العراق لتحكي ما رأيناه في أحلامنا.

سمعناها، بينما كنا نتدفق خلفها، وقد أسبلنا قاماتنا المموهة، نسترق النظر إلى أمهاتنا اللواتي كنّ مشغولات بحركات تشبه نشر ثياب لنا على حبال من الوهم. فمن أزمنة، لم تنبت لنا قمصان ولا عرف جسمنا غير ورق مر مصادفةً قرب عرينا.

لم نحفل بأعضائنا الناقصة. كنا نعرف أننا في ذلك الليل، حلمنا جميعاً حلماً، لو رآه الله لطلب من السماء أن تنسخه وتحفظه وتعيد كتابته كل ليل، وأمر الملائكة أن تتفرغ لحراسته مشهداً مشهداً، وحرفاً حرفاً.

ازدحمت الساحات بالانتباه. انتقل النخيل إلى جوار الكلمات. تحول العراق إلى حكاية تفلش صدرها وسادات تجرأت على سرقة أحلامنا الحلال.

قالت جوقة من الوسادات: انتشر ما بين الأرض والسماء بخور برائحة زيتون. تسلقت المياه ينابيعها لتعيد رحلتها من أول الأردن. تركت الأجراس قبابها، لتسجد على رنينها وانحنت المآذن لتتلو ركعتين من آية القدس.

يا الله! هي فلسطين إذن، أبواق على أسوار، صوت صارخ في البرية: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». وأردن يسمي نفسه نهراً، يقدم ماء عمادة لراس يسوع، فيحضر الروح القدس على شكل حمامة.

يا الله! هي فلسطين يوم يولد ويوم يصلب ويوم يبعث حياً ويوم يولد ... يولد.

هي الأرض المنتخبة للألوهة، عندما حضرت في أحشاء بتول لم يمسسها بشر. هي بيت لحم ومغارة منسية، يولد فيها المسيح.

يا الله! هي فلسطين البشارة وبيارات الروح، وقداس المزامير، وبرتقال الأجساد المغسولة بعطر الصلوات، وخشوع الروح، عندما تطرق القدس بقامتها هامة السماء، لتقيم بينها وبين الناس منازلها.

يا الله! هي ذات ليل، يعرج فيها الرسول إلى سماء، فيرى فيها الوعد والقداسة، ويعود على جواد من أعطية السماء.

يا الله! هي فلسطين، الفتاة المشتهاة، الصبية المنتشرة في جلعاد، والموشّحة بنشيد الأناشيد. هي البكر التي ظلّت على الدوام بكراً، تولد ولا تلد إلا ذاتها، في ما يشبه العبادة.

يا الله: هي فلسطين هذه الليلة.
وسكتت الوسادات من تلاوة ترتيلة فلسطين ورحن يسكرن من ترداد صور ومشاهد لم يرها أحد من قبل.
قالت وسادة: لماذا لا ترددون يا أطفال العراق أحلامكم؟

ورويناً:
لم نصدق ما رأينا: كان حلماً لا يرقى إليه شك في المنام. كان النوم توأماً لنا، عندما حضرنا جميعاً إلى فسحة لم نعرفها من قبل. وبينما كنا نبحث عن مواطئ لأناملنا الملساء، حضر أصدقاؤنا، أطفال أميركا أيضاً، وراحوا يبحثون مثلنا عن فسحات صغيرة بحجم أقدامهم التي تشبه ضيوفاً في حضرة ملاك.

فجأة، حضر أطفال ليسوا كالأطفال: كل واحد منهم يحمل نوعاً من فاكهة أو زهرة أو عشبة أو خيال شجرة أو عطر وردة أو نسمة من غصن. كانوا أطفالاً يكتظون بشهية الأرض. يمسكون بين أيديهم ذهباً نقياً بلون التراب، يقبلونه برموشهم، ويفحصون عيونهم عليه كأنهم في حالة سكر. وعرفناهم أطفال فلسطين. وسّعوا الأمكنة لأقدامنا، أخذونا بحناجرنا لزيارة فلسطين. وكم كان أطفال أميركا يشبهون سمكاً في ماء مقدس وأطفال فلسطين يشبهون الأجنحة وهي ترفرف فوق المياه.

ثم بدأت الصورة تخرج من إطار النوم، وتدحرجت عيوننا في ضوء

نهار فلسطيني، وسمعنا جميعاً صوتاً: «دعوا الأطفال يأتون إلي». جئنا جموعاً. تحلّقنا حوله. كنا أكثر من حوارييه الاثني عشر. ملأنا الأرض والفضاء ومعابر الضوء، حتى شعّ من وجهه نور على شكل هالة فوق رأسه، فعرفنا أنه المسيح.

قلنا له: علّمنا يا معلم. اخترع لنا معجزة. قل لنا آية. صمت يسوع قليلاً ثم قال: عندما يريد الله أن يتنزه، يختار فلسطين، وعندما يأتيها، يقيم فيها ولا يتركها. أنا اليوم هنا، كي أزور مسقط رأسي.

وبلمح الضوء صرنا في بيت لحم، حيث كنيسة تسجد قرب مغارة، استلقى فيها طفل بين يوسف ومريم، على سرير من قش، ولهاث داجن يدفئ جسده السماوي. صلينا جميعاً. تذكرنا حدثاً وقع منذ ألفين وثلاثة أعوام.

ورأينا مريم خائفة على ولدها، لكنها طمأنتنا عندما سجدت وصلّت معنا: «أبانا الذي في السماوات»: فسمعتها جموع الملائكة، فتلت عليها «السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الرب معك. مباركة ثمرة بطنك...».

وبلمح العشق، انتقلنا إلى قانا الجليل، وحضرنا عرساً أقيم على مائدة يفوح منها حب سخي. وتذوقت خمرة شفاهنا، فسكرت بنا وانتعشت أجسادنا. وكانت تلك أولى المعجزات. ورأينا المسيح يسوع يخرج من قانا إلى كل الأمكنة دفعة واحدة.

وصل صور وصيدا، وعاد إلى الجليل، ورفرفت روحه فوق الجداول

والأنهار والجبال والوهاد والشواطئ. ورأيناه كيف مشى على الماء، وكيف آمن به بطرس ويعقوب ويوحنا الحبيب.

ثم رأيناه يقف بين جموع الكهنة والفريسيين يصرخ بصوت يشبه هدير الجبال عندما تغضب: «بيتي بيت صلاة يدعى، وقد جعلتموه مغارة للصوص». ثم لحقنا به إلى أعالي يأسه المقدس، فوقف، وأمامه جموع خاشعة، ينادي قدسه: «يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين إليها، كم من مرة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خراباً».

ولم يشأ يسوع أن نحزن معه، فمنعنا من متابعة جلجلته. قلنا : لن ننكرك قبل صياح العمر. لكنه اختار أمه مريم والمجدلية المغسولة بدمع الندم والبهاء، وتلميذه يوحنا الحبيب. وفي اليوم الثالث أرانا قيامته المجيدة.

لم يكن بيننا توما واحد، ليضع إصبعه في الجسد الفلسطيني الإلهي. صدّقنا ارتفاعه إلى الله... ورأيناه جوقة من شعب يهلل: هلليلوليا هلليلوليا هلليلوليا.

وسمعنا همساً صديقاً: هي فلسطين ذخيرتكم. بوابات الروح. أطروحة الألوهة لا تتركوها، قبل أن تعرج وشماً إلى القلب.

ومضينا نتصفح الأزمنة والأمكنة: هنا صلى عمر بن الخطاب. قرب كنيسة صلّى. وهناك ارتفعت قبة تطل على كنيسة. هنا تآخينا في الروح. وهناك مدن تصافح النهر، وهنالك مدن تحب فتنة الشاطئ،

وقرى تأخذ شكل الأبواب، وبلدات تتصيد الغيوم، وكروم تستحق خمرة العناقيد، وبساتين تقول للزيتون كم عمرك بعد ألف عام؟ وبيارات تمسح عن البرتقال عرق الندى، وعن الشفاه قهوة المتعة المرة.

ومضينا إلى القدس، عاصمة الله.
لم نشعر أننا غرباء. نشأت بيننا وبين فلسطين، من قامة الجليل إلى راحة غزة، وسراب النقب الحقيقي، صداقة انتماء، وحفاوة أطفال، يحتفلون بنزهة الروح. كان أطفال أميركا مثلنا، نحن العراقيين السمر، يشعرون بأن ثمة شيئاً نقوله بكل اللغات، ونفهمه بلغة واحدة: وطن السلام.

لعل المكان الذي أقمنا فيه سحابة حلم هو الفردوس. أو، هو كذلك حقاً.
لعل المكان، هو مجمع كل الأمكنة! هكذا شعرنا.

وفجأة، مرة أخرى، تقدم أطفال فلسطين من كتاب كبير، فتحوا صفحاته كما يخبز القمح، وعبروا منه إلى التاريخ، فتناولناه معاً، وكسرنا خبزه، ووزعناه علينا. وكان أطفال أميركا يشربون الكلمات بعيونهم، ويدسون الحروف في ذاكرتهم.

كان فرحاً يتولى احتضان السعادة.
وفجأة، مرة أخرى أيضاً، فتح أطفال فلسطين كتاباً آخر، وطفق شعب يتدفق منه. أناس يشبهون كروم العنب، أناس يعتنقون أغصان الزيتون، أناس تلونت خدودهم ببرتقال من شغف قدسي، أناس يعتمرون غابات من صنوبر، يتوزعون كخبز من قمح صديق.

ولم يتوقف تدفق الناس، أناس من تعب مريح، يستلقي على بيادر تدرس سنابلها، أناس من جهد فرح، يتجوّل بين بيارات تنتظر مطراً لا بد من أن يأتي، أناس اختاروا أن يصنعوا للرب جنته.

ألم نقل إن الله يتنزه في فلسطين في الفصول الأربعة؟ إذاً، هم يطعمون مخازنهم القليلة، ويفرجون عن طبيعة مأسورة بعرق، كل قطعة أرض موقعة بالجبين. لا تحتاج فلسطين إلى صك ملكية، فجذورها مشلشة في قلوب الفلسطينيين، الذين عقدوا ضفائر قلوبهم على جبين البلاد.

ولم يتوقف تدفق الناس: أناس ينتظمون في عائلة، لا يهاجر أبناؤها إلى سفينة إلا بعد أن يدربوها على العودة. يصطادون السمك كتلامذة يسوع، ويقيمون للعصافير سجناً مفتوحاً، مثل راحات أيديهم المطعّمة بشقوق تقلّد قسمات الأرض عندما تنفرج للولادة كل ربيع.

أناس يصنعون للكراسي قامة رجال ونساء، ويجلسون عليها لمباركة الكلام بالحديث عن أشيائهم الصغيرة والجميلة. أناس يلبسون أجساداً تليق بألوان الثياب. ويقصدون العتبات ليعزموا البيوت إلى فنائها، والإقامة على ضفة الـ«أهلاً وسهلاً». يضيّفون المسافر تحية وزاداً.

أناس يتقدس العمل على أيديهم: فلاحون يحرثون قصائدهم في الجلالي والمنحدرات والمنبسطات. مزارعون، يكتمون نثر الحبوب في جنس التراب الشهي، فتلد كل حبة سنبلة، وفي كل سنبلة مائة حبة. فما أجملها بتولاً بكراً كثيرة الخصب ربة الأنوثة.

أناس يتفنّنون في صناعة الخشب، مسابح للصلاة، مذابح للعبادة، وسفناً لإغراء البحر، وسياجاً لأناقة المشوار.

فلسطينيون دهريون أقاموا في الأزمنة والأمكنة، فكانوا شعباً في أرض، وأرضاً في شعب. يكتبون الشعر سلافاً. يقرعون صدورهم بالموسيقى، ويوقظون النوم ليسهر معهم على مواويل الحدائق وتراتيل الورد واحتفالات الزنابق حينما ينسكب في تواضعها خجل المساء.
يا الله! لماذا جعلتها قبلة؟ لماذا اخترتها مكاناً لإقامتك؟

وقلنا جميعاً: أعطنا خبزنا كفاية يومنا، وأعطيت فلسطين من الروح كفاية دهرها.

ومن التاريخ عاد أطفال فلسطين ودُعينا لتناول الطعام معهم. كل طفل منهم مسيح يكسر الخبز ولا ينتهي من توزيعه. البساط مفتوح على شهية لا تعتدل، فأكلنا من «من وسلوى»، وتذوقنا نبيذاً نبوياً، وتمتعنا بشواء من خرفان، اعتادت أن تقلّد المسيح، فترتاح دائماً على بركة كتفيه.

وفرح أطفال أميركا وسألونا هل نحن كذلك؟ تكاتفنا، وعلى صوت مزمار حنون، خضنا حلبة رقص، ودبكنا حتى توجعت الأرض من إيقاع قلوبنا. قلوب تطأ صفحتها بعمق وجدارة.

وتوقف الأطفال الفلسطينيون فجأة عن الكلام. انتهى الكتاب عند مطلع القرن الواحد والعشرين، فانسحبوا وفي عيونهم دمع صامت، وأسئلة تسألنا، نحن الضيوف، عن ليلة قدر فلسطينية.

انسحبوا قبل أن ننتهي من جمر الكستناء. أقفلوا الكتاب وعادوا منه إلى الماضي. ولما تبعناهم، كنا قد وصلنا إلى حافة السرير. وبحثنا عن أصدقائنا أطفال أميركا، فوجدناهم في أسرتهم الموزّعة مثل باقات من النوم، في منازل مضاءة بأحلام أخرى، تصنعها قارة بعيدة.

هذا ما حلمنا به ذات نوم. ولكنه بكل أسف، ليس حقيقياً، ولا ينتسب إلى وجع الحاضر. هذا حلم مستحيل. فيا أطفال أميركا، لن تستطيعوا الحضور إلى فلسطين لأنها ليست موجودة بعد. ما زالت معلقة على جدار، تشبه صورة رسمتها ليلى ولم تنجزها بعد.

هل تعرفون أن كل إنسان يعيش في وطن؟ هل قرأتم قصة «البيت» لزكريا تامر؟ وحده الفلسطيني لا وطن له فوق أرضه. هو موجود قليلاً، في وطن غير موجود أبداً.

لعلكم يا أطفال أميركا، تتذكرون ليلى التي رأيناها في مناماتنا، وتعرفتم إلى قصتها، وقرأتم حكايتها. تذكروا إذا:

«كانت ليلى تحب الرسم كثيراً.

في الربيع، كانت ليلى ترسم حقلاً من السنابل، وفي الصيف كانت ترسم بستاناً مثقلاً بالثمار، وفي الخريف كانت ترسم غيمة تضحك فوق التلال والحقول والجداول، وفي الشتاء كانت ترسم جبلاً يرتاح فوق جبينه ثلج ناصع البياض.

كبرت ليلى.

مرة، رأت ليلى صياداً يقتل عصفوراً، فرسمت دمعة صغيرة.

ومرة، رأت طفلاً يتسوّل في الطرقات، فرسمت دمعتين.

ومرة، رأت رجلاً تضربه الشرطة في الشارع، فبكت، ولم ترسم شيئاً.

كبرت ليلى، وذهبت إلى المدرسة.
تعلمت ليلى الحروف رأتها جميلة، فرسمتها.
جمعت الحروف وألفت كلمات. رأتها جميلة، فرسمتها.
كبرت ليلى، وصارت تعرف القراءة.

وقرأت ليلى أن لكل طفل بيتاً، فرسمت بيتاً صغيراً يعيش فيه طفل يبتسم.
وقرأت أيضاً، أن البيوت تجتمع لتؤلف القرى والمدن، فرسمت ليلى قرية، وزينت سطوحها بالقرميد الأحمر، ثم رسمت مدينة جميلة، تعلو قامة الأبنية فيها، وتمتد الشوارع بينها كألسنة ملتوية.
وقرأت ليلى أن القرى والمدن تتكاتف لتؤلف وطناً جميلاً.
لم تعرف ليلى كيف ترسم وطنها.

أسرعت إلى أمها تسألها عن الوطن، فدلّتها على خريطة حزينة معلقة بمسمار هادئ مغروز في جدارٍ أصفر.

كرّرت ليلى السؤال، ولم تفهم لماذا أشارت أمها مرة ثانية بصمت إلى الخريطة.

تأملت ليلى الخريطة ملياً، فلم تجد بيوتاً تجتمع، ومدناً تتعانق.
ولما طلبت أن ترى وطنها، تلألأت في عيني أمها دمعتان.

حزنت ليلى، وعرفت أن وطنها مسيّج بالأسلاك، ومكبّل بالسلاسل.

منذ ذلك اليوم، صارت ترسم ليلى على دفترها ودفاتر أصدقائها «حجارة مسنونة وبندقية طويلة القامة».

هل تتذكرون هذه الحكاية؟
ليلى توقفت عن الرسم، كفّت عن تلوين الأرض بالبنّي، والسماء بالأزرق. هي اليوم تنام على حجر، وترحّب بالمطر إن جاء يروي سريرها، وليدس في وسادتها الحجرية، خبراً عن وطنها الذي ما زال ينزف على صليبه.

ليلى ورفيقاتها ورفاقها الصغار، مضوا إلى وطن آخر. إنهم اليوم في السماء، ﴿أحياء عند ربهم يرزقون...﴾ وهم شديدو الحزن، لأنهم ما ذاقوا من الوطن إلا طعم الدم. وما رأوا إلا لون الدم، وما سمعوا فيه إلا إطلاق الرصاص على صدورهم الطيبة.

قبل نزهتهم السماوية، تركت ليلى رسالة لكم، موقعة من أطفال فلسطين، رجاءً، اقرأوها: يا أصدقاءنا، أطفال أميركا، لا نريد أن نثقل عليكم بآلامنا وأوجاعنا في بلادنا، إنما، لا بد أن تعرفوا شيئاً عن أسباب موتنا الباكر. يلزم أن نصدقكم القول: إن إسرائيل تقتلنا بالسلاح الأميركي، وتمنع قيام وطن بالقرار الأميركي، وتتهمنا بالإرهاب. ونحن لا نملك إلا دمنا لندافع به عن دمنا. سلاحنا الوحيد: «وردة من دمنا» على ما نظمه الأخطل الصغير.

يا أصدقاءنا أطفال أميركا، كم هو جميل ورائع أن تزوروا فلسطين،

كما في الحلم، أو كما في الحلم إلا قليلاً، أو كثيراً. إلا أن هذا مستحيل. ففلسطين سرقت بكاملها تقريباً، وما تبقى منها، حولته إسرائيل إلى قبر جشع.

وإذا كنتم لا تصدقوننا، وتظنون أن شبهة الإرهاب متصلة بنا، فإننا ننصحكم بقراءة كتاب، أصدره مؤلف فرنسي شهير، يدعى آلان غريش، وهو ذو عقل متحرر، وغير منحاز نسبياً، وأمه يهودية، وثقافته كوزموبوليتية. أحب آلان غريش أن يعرّف ابنته بالمسألة الفلسطينية والصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، فكتب لها كتاباً «إسرائيل فلسطين» ـ «حقائق عن صراع»، نأمل منكم أن تقيموا بينكم وبينه صلة قراءة وقرابة. ونحن نقبل حكمكم في ما بعد. ونظنّ أنكم، ستكونون كابنته، واعين لحقيقة هذا الموت الحزين الذي استقر بقامته فوق أجسادنا، طوال قرن من الزمن.

كونوا كابنته. تعرّفوا منه كيف سرقت منا بيوتنا، كيف طرد أجدادنا وآباؤنا من أرضنا، كيف سجّلونا باسم واحد في المنافي: «لاجئون»، منذ نصف قرن ونحن في معسكرات الاعتقالات المنفية عن العيون، بلا خبز ولا دواء ولا سقف ولا مسيح أو نبي. تركنا وحدنا في هذا العراء. إسرائيل تستورد شعباً من كل البلاد، وتدسه في أرضنا، ونحن، نولد في المنافي ومواطئ اللجوء، أو في ظل دبابة تحرس الاحتلال، أو على حاجز يمنع أمهاتنا من ابتكار ولادة طبيعية.

يا أصدقاءنا، هل تعلمون أن الإدارات الأميركية المتعاقبة اختارت أن نكون أعداءها ولم نرتكب ذنباً واحداً؟ سلّطت علينا إسرائيل، وزودتها بالمال، بـ ١٠٠ مليار دولار تقريباً، نقداً وعداً. وهذا المال

من حسابكم وجيوب أهلكم، وموظف ضدنا وضد أرضنا وضد أطفال لن يبلغوا سن السعادة أبداً.

والله حرام. أميركا منحت اسرائيل حماية دولية، وحرمتنا من حق الشكوى، ومنعتنا من الاحتجاج في الأمم المتحدة، وألزمتنا بأن نقبل بسكينها حكماً على رقابنا. وهي لا تزال، حتى اللحظة، تبارك السفاح آرييل شارون، قاتل الأبرياء في مخيمات صبرا وشاتيلا، وتسميه رجل السلام.

إننا لا نكره أميركا أبداً، ولكننا نشعر بغضب يطحن كلماتنا. كيف تلبس أميركا عينيها؟ ولماذا تسمي أطفالاً يحاربون الدبابات الإسرائيلية بالحجارة، إرهابيين؟ من حقنا أن نغضب كثيراً، إنما، لا نكرهكم أبداً. افهمونا فقط. إن أطفال فلسطين هم برسم الموت. كنا نعزي أنفسنا، فنلقب قتلانا شهداء، كي لا يموتوا سدى. نريد أن تكون الشهادة طريقنا إلى الحرية. وليس عندنا طريق آخر. فكل المنافذ إلى الحرية، وإلى حقوقنا كبشر، مقفلة بالأقدام الإسرائيلية والأسلحة الأميركية. دمنا هو طريقنا. وقد سلكناه بكل عذوبة عذاباته.
صدقونا، إننا نحب الحياة كثيراً، إلا أنها ممنوعة عنا.

نختصر لكم عمر بلدنا:
عندما أعطيت «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وعداً من وزير خارجية بريطانيا في مطلع القرن الفائت، حضر المهاجرون اليهود إلى فلسطين، وتدفقوا من كل البلاد التي ولدوا فيها، وحولوا مساقط رؤوسنا إلى مواطئ لأقدامهم. أخذوا المنازل والحقول والقرى والبلدات. اشتروا بالقوة والقهر والإفقار ما كان عزيزاً وحميماً.

وطوقوا حياتنا بالمجازر والرعب والقتل. فصار الهرب وطننا الراحل معنا.

هكذا صرنا بلا بيوت. حتى عتبات دورنا باتت ممنوعة علينا. رائحة القهوة التي كانت تشتعل في شفاه آبائنا صارت أكثر مرارة. وأعقاب سجائر آبائنا وأجدادنا لم تعد تشتعل بنار، لأنها ابتلت بدمع يتدفق من قهر لا قرار له.

لا، لم نكن جبناء. قاومناهم ولا نزال...
وعندما فتك هتلر بملايين اليهود في ألمانيا، وبعدما تعرضوا لسلسلة من الاضطهاد المبرمج على أيدي أوروبيين متحضرين، تدفقوا على بلادنا مرة أخرى.

يا للهول!
مارسوا ضدنا ما تذوقوه على أيدي غيرنا. انتقموا منا. ذبحوا وطننا من البحر إلى النهر. ونحن، قبل ذلك التاريخ، لم نصفع أحداً.

يا للهول!
الضحية صارت جلاداً. وصرنا ضحايا هذا الجلاد. وبكى العالم على اليهود. قالوا: لا بد لهم من وطن، فأعطوهم بلادنا، ولم يبكِ أحد علينا. ثم قالوا لا بد لنا من منفى. فأعطينا خياماً، وصرنا رعايا للأونروا، في شتات عالمي. ومنذ تاريخ مدنف، بعضنا يموت في أرضه منذ ولادته وبعضنا يموت في المنافي شوقا إلى أرضه.

وباختصار أيضاً، اختصرت إسرائيل بلادنا بكاملها: دمّرت في العام ١٩٤٨ فقط ٤١٨ قرية. قرى بكاملها لم تعد موجودة.

بلدات أمحت، قتلت، اغتيلت. وخيرونا بين خيام في الصحارى وبيوت التنك في ضواحي المدن. صرنا مدنفين على قارعة البلاد. أقدامنا ليست لنا. والطرقات مسدودة أمامنا، والعذاب فرشنا الذي يؤوينا.

ثمة إله أقام معنا في منافينا. وحده كنا نعبده. سميناه إله العودة، ونحن نؤمن به، ونقدم له فروض الشهادة، حتى القطرة الأخيرة.

إن وطننا مزروع فينا، فكيف نقيم بعيداً عنه؟ مفاتيح أبوابنا وبيوتنا ما زالت معلقة في صدر المخيمات، حفظناها كالأيقونات في صدور الجدات والأمهات. ورثناها صكوكاً غير قابلة للطعن. مفاتيح بيوتنا على موعد متأخر جداً من الآن، مع بوابات الضوء، ولا بد أن يقترب الموعد بعد أيام أو أسابيع أو عقود من الشقاء الأبدي.

لن نثقل عليكم بما ارتكبه الصهاينة من مجازر ومذابح بحق المدنيين، وما زالوا. والغريب حقاً، أن معظم هذه المجازر قد ارتكبها الجيش الإسرائيلي، بسلاح أميركي، ورعاية أميركية، وبقيادة صديق حميم لأميركا، هو الجنرال آرييل شارون. والمؤسف أن الرئيس الأميركي جورج بوش، يستقبله في البيت الأبيض، وينوه بجهوده السلمية، فيما دماؤنا وشم على قبضته، ورائحة صبرا وشاتيلا تفوح من ضميره. يبدو أن دمنا مختلف عن دماء الشعوب الأخرى، وهو مباح للسفك. لذلك، هو مجاني.

يقولون: في هذه البلاد بحر يدعى البحر الميت، ويتمنون أن يصبح شعب هذه البلاد، «الشعب الميت». وإذا بقي منا بعضنا على قيد الحياة، فهو سيكون بحكم الميت أيضاً.

نحن نقول: مستحيل.
يؤلمنا يا أطفال أميركا الطيبين، أن يُدان أطفال فلسطين بالإرهاب.

هل تعرفون قصة محمد الدرة؟ كان المشهد في التلفزيون مريعاً:
أب يختبئ خلف برميل أمام جدار يحتضن ابنه الصغير ويلوح بيديه كي لا يطلقوا النار. ومع ذلك، فقد فعلوها. رموه بالرصاص مراراً، على مرأى من كاميرا كانت هناك، ومزّق الرصاص جسد محمد الطاهر، فلوى عنقه، ونام على صدر والده الجريح، الذي غفا على جرحه.

دم يغفو على دم.
ودارت الأرض دورتها، واستفظع العالم همجية الجنود الذين يقتلون الأطفال.

بكينا محمد الدرة. بكيناه حتى غارت عيوننا في المآقي. وكذلك فعل غيرنا من أطفال العالم. غير أن الإعلام الأميركي يا أصدقاءنا الأطفال، اتهم محمد الدرة، بأنه وقف في مرمى نيران الجنود الإسرائيليين.

فالحق على الشهداء.
ومنذ ذلك اليوم، يتهم أطفال فلسطين بأنهم يعرضون أنفسهم للبنادق، ويقفون في مرمى النيران الإسرائيلية. هل تصدقون أن أطفالاً ينتحرون؟ ولأن العالم صدقهم، فهم يقتلون ذرية محمد الدرة عن بكرة أطفالها.

إننا نحترم الدمع، ونقدس الدم، ولا نفرط بهما. فماذا نفعل وليس في جيوبنا ما ندفعه، وليس في ثيابنا ما نسخو به، وليس بين أيدينا

ما ندافع به عن أنفسنا غير الدمع والدم؟ هل قرأتم قصيدة محمود درويش؟ هل سمعتم ترتيلة نضال الأشقر ترندحها بكاء من دموع غسان مطر؟حقاً إنهم لا يحترمون دموعنا، ولا دماء أطفال يأتون إلينا، ليكونوا دروعاً مؤقتة لحمايتنا.

عن عمد، أغفلوا قصة راشيل كوري. فتاة أميركية ناصعة، جميلة كحلم، بهية كطلة غمامة من شغف، ذكية كومض من قبس روحاني، قوية كحقيقة لا يعتريها غلط. جاءت راشيل، مدفوعة بإيمان واضح: الإسرائيلي يقتل الفلسطيني، والعالم يتفرّج على المذبحة، فلماذا لا أقف حاجزاً أمام القتل، ولو يوماً واحداً؟

جاءت راشيل، وهي تعرف أن إسرائيل تدمر بيوت الفلسطينيين وتشرد عائلاتهم، ثم تخرّب بيوتهم وحقولهم، وتقتاد العائلات إلى المنفى.. في داخل البلاد. قررت راشيل كوري أن تقوم ببادرة سلمية، متمتعة بحصانة مواطنيتها الأميركية.

إنكم تعرفون ولا شك، أنها وقفت أمام الجرافة الإسرائيلية لتمنعها من تدمير أحلام مبنية بحجارة، من تدمير بيوت مبنية بتعب.

يا إلهي! سحقتها الجرافة. راشيل الصبية الرائعة، قتلتها آلة أميركية يقودها إسرائيلي.
بكيناها كما يليق بالشهداء.
بكيناها كما يليق بالدمع.

وسميناها على أسماء أطفال ولدوا. وصارت كشجرة لها أخوة وأخوات.

إنما، يا للعار! أميركا تخلّت عن راشيل.
كتبت عنها: غبية تدافع عن إرهابيين.
رسموها رسوماً كاريكاتورية. طردوها من حديقة العناية الأميركية، وجرّدوها من نسبها، وباعوها رخيصة.

يا أصدقاءنا، نحن نحفظ الصداقات الأقل من ذلك، فكيف لا نحتضن راشيل. سيكون لها قرية باسمها، وسيكون لها شارع باسمها. رجاءً، لا تنسوا ذلك، فإذا حضرتم يوماً إلينا، زوروا نصبها التذكاري، فهو موزع علينا قطرة قطرة، ويسكن في عروقنا.

أثقلنا عليكم كثيراً. إننا نأسف لذلك. فهذا الحلم الذي حلمناه، نحن أطفال العراق، نتقاسمه معكم، ولا يستطيع أطفال فلسطين أن يتعرفوا إليه، فلا وقت لديهم للأحلام، ولا وقت لديهم لأحزان مديدة. أحزانهم قصيرة ومكثفة جداً وكثيرة الصمت، ويقال : لا وقت لديهم للمرض.

هل نتابع قراءة ما كتبته ليلى قبل نومها الأخير:
تقول ليلى: إننا نأسف لذلك، ولكن فلسطين، الوطن الإلهي، مسكون بشياطين الأرض السفاحين: يخرجون من الجيش إلى السلطة والكنيست. كل رؤساء إسرائيل، جاؤوا من بنادقهم. ولدوا في الثكنات العسكرية. فإسرائيل ثكنة كبيرة تدعى دولة. وهي خارجة على القوانين ولا يستطيع أحد أن يلومها، خوفاً من غضب الولايات المتحدة الأميركية. ولذلك، فهي لا تزال تنزه جيشها بكامل أسلحته فوق منازلنا، أو ما بقي منها، وفي قلب مخيماتنا، أو ما بقي منها. وتدمّر القليل الذي نملكه أو ما بقي منه، كي

ننسحب. ولكننا لن نفعل. ونظنّ أنكم مثلنا، إن جاءكم مغتصب ليأخذ داركم أو لعبكم أو أي شيء تملكونه، فستدافعون عن أنفسكم وتعدون له قصاصاً مناسباً.

لا لن نهجر.
لا لن ننسى.
في المرة الأولى قالوا لنا: اتركوها أرضكم. وستعودون إليها بعد الحرب. واتكلنا على سوانا... ولم نعد. وما زال الأهل في المنافي البائسة يلوكون حلم العودة المرّ. وللعجب، فهم مصرون على هذا الحلم حتى يتحقق المستحيل في هنيهة من الزمن.

ولكي نستمر في الحياة، اعتدنا على أن يكون غدنا أسوأ من اليوم، بانتظار الغد الذي يسمى عندنا القيامة المجيدة. فالمسيح الذي صلب، قام من بين الأموات. حقاً قام. كما ستقوم فلسطين.
ابتدعنا معجزات كثيرة.

هل تعرفون قصة أم حسن؟ أم حسن التي مرت في منامنا بطريقة ما، ولم ننتبه إليها، عندما خرجت من الكتاب الذي توقفت صفحاته عند أول القرن. أنها ومحمد الدرة كتاب واحد.

أم حسن، أدخلت في قاموس المناسبات الفلسطينية نوعاً جديداً من الغناء، وأضافت إلى تقاليد الحزن أفراحاً جديدة. حدث ذلك ذات يوم.

هي تدعى «حسناء»، ومنذ طفولتها أولعت بالغناء. كانت تنام على صوت حداء ناعم، ينساب في العشايا المعتمة، بين تنهيدة جدها، وتمتمة جدتها.

كبرت «حسناء»، وصارت سنبلة تتمايل في حقول، تُدعى إلى بيادر الأعراس، فترقص على ارتفاع السواعد التي تصطفّق مثل هواء يلثم تلالاً.

«حسناء»، كانت تشبه إيزادورا، أروع الراقصات في العالم. تدور وتدور، تضرب الأرض برجليها العاريتين، كأنها تريد إيقاظ الأرض من سباتها، أو كأنها تريد أن تسمعها وقع الخفق المتدفق من شرايينها. إنها زوربا الانثى.

ومضى زمان، وأصبحت «حسناء» فتاة جميلة وشهية، فصارت تغني بحياء، وترقص بحياء، وتدندن القصائد بحياء، إلا أن نوعاً واحداً من الغناء لم تكن تتخلى عنه، بل أصرت على تجويده وإطالة أنغامه، وتأديته بشكل يثير فرحاً غير مسبوق. وهذا النوع من الغناء، هو الزغردة، أو ما يقال عنه بالعامية «الزلغوطة». ففي الأعراس كانت «حسناء» تتبارى بجودة حنجرتها... تدعو للعريس والعروس بالرفاه والبنين. وفي أيام الحزن الشاق الوافرة، كانت «حسناء» تنبري من بين الدموع، لإلقاء تحية الحزن والوداع، عبر زغردة مبحوحة بشجى غصة عصية على النطق والنشيج.

وهكذا لقبت حسناء بـ«أم الزلغوطة».
كبرت حسناء. تزوجت. ولدت من البنين والبنات سبعاً، وكنيت باسم ابنها البكر.. وظلت «أم الزلغوطة»، لا «أم حسن».

وتغيرت الأحوال، وساءت الدنيا، وتبدلت الليالي، واكفهرت النهارات، إلا أن شيئاً واحداً لم يتغير، استمرت «أم الزلغوطة»

بمشاركتها في الأفراح بغنائها الخاص، وسفح دموعها في الأحزان، بغناء خاص أيضاً.

وبعد انتفاضة أولى وثانية، صار التقليد أن تسير «أم الزلغوطة» في مقدمة الانتفاضة، كأنها مطلع قصيدة وظلت على هذا المنوال، إلى أن اعتقل ابنها حسن، فدخلت في دموعها وغابت عن الجموع، وصارت كأنها لم تكن.
صلّت كثيراً.
دمعت نحيباً.

ولكن حسن لم يعد، بل تبعه ثلاثة من أخوته، وصارت «حسناء»، منذ ذلك التاريخ، تدعى «أم حسن»، تعيش مع بناتها في شبه مأتم. ومنذ تلك الأيام لم تعد القرية تسمع «زلغوطة» واحدة.

صباح أحد الأيام، دهم جنود الاحتلال القرية، وتوجهوا فوراً إلى بيت أم حسن، وبسرعة، طوّقوا المنزل، وأعطوا المرأة والبنات ثلاثين دقيقة لإخلاء البيت.

خرجت «أم حسن» مثل تمثال ناصع الفجيعة، تلتمع في أطراف عينيها ابتسامة زهو وانتصار. وتنهمر من خاصرة شفتيها كلمات احتقار مبهمة.

خرجت «أم حسن» وجلست في ظل شجرة تنظر إلى الجنود، وهم يزنرّون البيت بالدنياميت. وفي هذه الأثناء، رفضت الأم أن تدخل البيت مع بناتها لإخراج بعض الأغراض والحاجيات، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل نسف البيت.

وبلغ الوقت مداه، في موجز من الزمن.انفجر البيت. تطايرت الحجارة. تصاعد دخان كثيف وغبار أعمى العيون.

وفجأة دوّت في المكان، «زلغوطة» أم حسن. ولم تكن تبكي.
ولم تكن تبكي.

«أم حسن»، أدخلت في قاموس المناسبات الوطنية، وفي قاموس الاحتفالات بنسف البيوت، زلغوطة الانتصار.

ولم تعد أم حسن إلى البكاء قط. إنها تسكن في حنجرتها وحناجر نساء يرفعن في المآتم ومواسم الشهادة، نغماً فلسطينياً خاصاً.

هكذا يترك الفلسطيني بيته بعدما يصير ركاماً. يعود إليه لماماً، فيسمع الحجارة تحكي كلاماً حفظته عن العائلة. تعيد رسم صور تركت على الجدار. وهي صور لخريطة أو لشهداء.

ليس في العالم قداسة بقدر ما في فلسطين. ففي كل بيت صورة شهيد أو أكثر. والشهداء قديسو الأرض وملائكة السماء.

عذراً مرة أخرى يا أطفال أميركا، ماذا نقول لكم عن أطفال فلسطين؟

إننا نأسف إذ نعلمكم أن برنامجهم اليومي لا يتضمن نهوضاً صباحياً من فراش، وطعاماً على طاولة، وخبزاً من عجين، و«أوتوكاراً» يقلهم إلى مدرسة، وكتاباً يحفظونه، ودروساً يتلقونها، وفروضاً يكتبونها، وحديقة يلعبون فيها، وكرة

يتداولونها، وأغاني يتمرنّون عليها، ورياضة يكسبون فيها، وغذاء مناسباً لعناء النهار.

لا يتضمن برنامجهم اليومي ترتيباً لأمورهم الخاصة: يمشطون شعرهم بأصابعهم، يغسلون وجوههم بالأرق ودخان القنابل المسيلة للدموع، ويزينون قمصانهم الرمادية الكالحة، بدم طفل يسقط قربهم، يركضون في الشوارع بحثاً عن حصاة أو حجر ليسجلوا هدفاً يصيب قامة دبابة. يتبارون مع جنود الاحتلال ويفوزون عليهم بالبسالة فقط، ويسجلون على العدو خوفه.

لا يتضمن برنامجهم اليومي لقاءً مسائياً على عشاء. يصلّون وأسنانهم تعض أسنانهم. يكدسون أحلام يقظة شرهة. يصممون على النوم أمام جنازير الدبابات كي يمنعوها من التقدّم. يتمرنون على المقلاع (أول آلة بدائية للمواجهة، تعود إلى آلاف السنوات). فليس في اليد حيلة، غير المقلاع والحجر، وعند الضرورة، النزول بكل احتياطهم الاستراتيجي: الدم والشهادة.

لا، أيها الأطفال الأميركيون الطيبون، لن تستطيعوا زيارة فلسطين. فأطفالها مشغولون جداً، ومنهمكون بتقصي الأخبار عن آبائهم الذين سجنوا، وزيارة قبور آبائهم الذين قتلوا، والانتظار في صفوف التشييع، ثم المناوبة على التظاهر ضد الاحتلال.

لو تعرفون هواياتهم: يحبون الغناء، وتلاوة المواويل، وتجديد الثمار، واللعب بالألوان، والرسم على الدفاتر والجدران، وكتابة رسائل العشق، والتسلية بمطاردة الفراشات، ولبس قمصان من أجنحة العصافير، وزيادة الينابيع، والسباحة في الأزرق البهي، وممارسة

الشيطنة، وتأليف النكات، وانتظار الصبايا عند المنعطفات، ومراقبة بائع الحلوى، ومشاهدة أفلام الكرتون، ومصادقة بريد القراء، والتزين بباقات الأعياد، والوقوف على عتبات الزيتون... من هواياتهم أن يكونوا أطفالاً صغاراً جداً، يحنّون إلى حرج أم تضحك، وصدر أب مرح، ولفافة جد يتثاءب الدخان من بين شاربيه.

أطفال فلسطين يهوون الحياة ويفتتحونها لهم وللآخرين. يحبون التفرج على طاولة النرد، ولعبة الداما، وعبقرية الشطرنج. يهوون دندنة العواد، وإيقاع الدربكة، ومتعة المشاركة بالدبكة، ولبس الثياب القروية، وممارسة مهرجان الصيف في بيادر المواسم.

يحبون إقامة خط تواصلي على الإنترنت مع كل الأطفال في العالم. إنما، أطفال فلسطين، لا وقت لديهم للهوايات لأن وقتهم سرق منهم، وصاروا خارجه.

ولو فرضنا أنكم ستزورونهم يوماً ما، فلن تجدوهم، لن تجدوا محمد أبو عاصي (١٢ عاماً) وأياد الخشستي (١٧ عاماً) وسامر طبنجه (١٠ أعوام) ومحمد الهمص (١٥ عاماً) ومحمد نبيل داوود (١٤ عاماً) وسامي الترامسي (١٧ عاماً) ونزار عبده (١٦ عاماً) ووائل قطادي (١٦ عاماً) وحسام الهمشري (١٦ عاماً) وعمار الرفاعي وشريف عاشور (١٨ عاماً). كل هؤلاء سبقوا محمد الدرة (١٢ عاماً)، قبل سقوطه شهيداً أمام الكاميرا.

ولن تجدوا أيضاً زملاءكم المفترضين: علاء خالد نصار وأسيل عاملة وضياء عيسى وملحم تمام ولؤي المقيد وسمير المسلماني وساره عبد الحق ويوسف خلق وعبد الحميد عبد الحميد وسامي سليمي وكرم

قنن ومؤيد أسامة الجواريش وعلاء بسام بطمش وثائر أعمر وسامر عويضي وأمجد أبو طاحون وعمر البحيصي وماجد إبراهيم حوامدة. وأعمارهم ما بين العاشرة ومنتصف العشرين.

ولن يحضر أيضاً لاستقبالكم كل من وائل وصلاح وسائد ونضال وعلاء وبشير وحسني وشادي وثائر ومحمد وإبراهيم وخالد ويزن ومحمود وماهر ووجدي ومحمد وفارس وخليل وأبو غالي ورائد وشراب وأسامة والجرجاوي وموسى وأبو ناجي ويحيى والطويل والعجلة وشقفة وصابر وفتحي وأبو الكباش وعبد الحافظ والجعيدي وجهاد والعريس سامر، ورامي وأبو ريان وحمزة والدهشان وعثمان وياسر، والمقنن ومرام وأيسر ومجدي وتيسير وزكريا وشادي وعماد ووليد والعرجة ومدحت ورمزي... ومئات الأسماء الذين قتلوا جميعاً، بلا استثناء برصاص في الصدر أو القلب أو الرأس.

ولن يحضر سين وشين وألف وميم ووباء وحاء و... لم تكتمل القافلة بعد.

نستطيع استقبالكم في مدارسنا لنسمعكم نشيدنا الوطني ونقرأ لكم قصائد محمود درويش و«متشائل» إميل حبيبي. فالمدارس تخلت عن حمايتنا. احتلها الجيش الإسرائيلي، وحتى الآن بلغ عدد الشهداء من طلاب المدارس ٣٧٢ و٢٧ معلماً.

أما عدد الجرحى والمعوقين من تلاميذ المدارس فقد بلغ ٢٩٨٤ طفلاً، وعدد المعتقلين من تلامذة المدارس ٣٠٥ أطفال و١٣٧ معلماً. وتمّ قصف ٢٩٠ مدرسة بالدبابات وأغلق أكثر من ٥٠٠ مدرسة لفترات طويلة.

فأين نستقبلكم إن حضرتم؟
هذه مدارسنا ركام.
المدى معتقل. السجون على عتبة بيوتنا.
رجاءً، تأخروا عن الحضور، لنفرش لكم فلسطين بالابتسامات.

وإن حضرتم، ستستقبلكم الدبابات الأميركية، المنتشرة فوق منصات أجساد لأطفال مرشحين للقنص والقتل والسحل والموت.

وبانتظار أن يصير الحلم ممكناً، ولو بتزوير، يؤسفنا أن نعلمكم يا أصدقاءنا، أننا نحن في العراق، ننتمي إلى فلسطين أولاً. فمن أراد منا أن يكون طفلاً حقيقياً، عليه أن يتلقى معمودية فلسطين. ونعرف عن أطفال فلسطين أكثر مما نعرف عن أي طفل في العالم. فهو مقيم معنا، يتيماً أو منفياً أو مقاوماً أو شهيداً. وحده بين أطفال العالم يستحق أن يكون المسيح. ما أطول جلجلته، وما أشد المسامير في يديه، وما طعم المرارة في خل فمه، وكم صليبه من عذاب موصول؟

ويؤسفنا أن نقول لكم، إننا نحب منتوجات كثيرة تصدرونها إلى العالم، ونمنع أنفسنا من شرائها، وندعو العالم إلى مقاطعتها. ليس لأنها مزغولة أو مغشوشة، بل لأن هذه الشركات تتبرع بجزء من أرباحها، لمساعدة إسرائيل في بناء المستوطنات أو المستعمرات لمن تستوردهم من شعوب الأرض، أي لمساعدة إسرائيل في بناء مقابر لسكن الفلسطينيين.

نحن نحب «همبرغر ماكدونالد»، ونحرم أنفسنا منه، عندما يتسنى لنا أن نتصيد حفنة من المال. إنه طعام طيب ولذيذ، ومصحوب

بالبطاطا المقلية و«الكاتشاب». إنه شهي جداً، ولعابنا يسيل عندما نراه في الصورة. نحب «الكوكاكولا»، ونتمنى لو نضع فمنا على فمها ونكرعها حتى آخرها، فيصعد غازها من أنوفنا وتدمع عيوننا فرحاً، ومع ذلك فإننا نحرم أنفسنا من ذلك، لأن هذه الشركة العملاقة تقدم معونات مالية لإسرائيل. نحب «نسله» السويسرية، ولكننا لا نلمسها. من منا لا يحب «الشوكولاطة»؟ نحبها ونلحس أصابعنا بعدها ولا نفعل، ونفضّل أن نعض أصابعنا ونقتات من عرقها، عوضاً أن نعضها ندامة، لأننا دعمنا شركة تقدّم لإسرائيل ما تغتالنا به.

يقول الفلسطينيون لكم: آخ. لا تصدقوا ما يقولونه لكم عنا. إننا لسنا مسلمين ومسيحيين في فلسطين. نحن فلسطينيون، ونريد فلسطين فقط لا غير. هم يصورون لكم أن الصراع في فلسطين هو بين اليهود والمسلمين، وهذا غير صحيح بالمرة. إنه بيننا وبين الصهاينة، وهم في أكثرهم من اليهود، وعندكم الكثيرون منهم في قلب إدارتكم السياسية، وفي صلب إعلامكم المسيطر. وإن كنتم لا تصدقون، فاسألوا أهلكم، لماذا منعت كنيسة المهد في بيت لحم، رئيسكم جورج بوش من زيارتها؟

هذا بالأمس القريب. أما في الماضي، فإليكم بعض ما حدث: كتب المؤرخ الإسرائيلي إيلان هاليفي في كتابه «المسألة اليهودية: القبيلة والشريعة» ما يلي:
في قرية عيلبون في الجليل أحرق جنود الهاغانا عشرة شبان فلسطينيين مسيحيين في كنيسة القرية وهم أحياء. وأقدموا على اقتحام كنيسة القرية وإعدام ١٤ مواطناً... ويروي الضابط زوتي الذي كان يعمل مراقباً للأمم المتحدة في شمالي فلسطين، أنه في

العام ١٩٤٨ لمح صفاً طويلاً من النساء والأطفال يسيرون في الطريق المؤدّي إلى عيلبون خلافاً لما شاهده في الأيام المعتادة، كما لفت نظره أن فريقاً من الشرطة المدنية الإسرائيلية يقوم بسوق الجمع الذي يخلو تماماً من الشبان، ولما استفسر إحدى النساء عما جرى، روت له وهي تذرف الدموع ما حدث:

«إن القوات الإسرائيلية هاجمت القرية ولاذ أهل القرية بالكنيستين الموجودتين في القرية، ولدى سيطرة القوات الإسرائيلية سعى راعي القرية الراهب حنا داوود البالغ من العمر ٨٥ عاماً للوصول إلى قائد الحملة، وعلى الرغم من توسلات الراهب ووضعه القرية تحت حماية القوات الإسرائيلية، رفض الضابط الطلب متهماً أهل القرية بأنهم مثّلوا بجثتين من الجنود خلال الاشتباك مع قوات «الإنقاذ».

وعبثاً حاول الراهب إقناعه بأن أهل القرية أبرياء، إلا أن القائد الإسرائيلي أمر أهل القرية بترك الكنيستين والتوجه إلى ساحة عامة، تقع أمام منزل الأب ماركوس حيث أمر الأهالي بالجلوس على الأرض ووضع أيديهم فوق رؤوسهم، وخاطبهم القائد غاضباً: أتريدون الحرب، إليكم هي: وما إن أشار بيده حتى انطلقت النيران من أربعة جنود، وسقط من سقط. ثم أومأ إلى ثلاثة شبان بينهم فتى لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره، فاقتيدوا إلى حقل قريب، حيث قتلوا ذبحاً. وواصلت القوة الإسرائيلية مهمة قتل من تبقى من الشبان حتى بلغ عددهم ١٣ شخصاً. وبعد ذلك، أحرقت أسرة بكاملها حية في بيوتها، لبعث الخوف والفزع في قلوب السكان العرب وإرغامهم على الرحيل».

هذه قطرة من دماء ما ارتكبته إسرائيل بحق الفلسطينيين المسيحيين

والمسلمين معاً. إن تاريخ إسرائيل هو تاريخ من المجازر والإرهاب. كتب حاييم وايزمن، أول رئيس لدولة إسرائيل «إن إقامة دولتنا تحتاج إلى كفاح مسلح وجهود دبلوماسية مضنية.. ولكنها تحتاج أيضاً إلى الإرهاب» (التجربة والخطأ).

حقوق الإنسان؟؟
الفلسطيني يقدسها، يتمنى أن يحظى بحرف واحد منها، أن يحتمي بخيالات حروفها. فهو لا يحظى منها إلا بالإدانة. كأنه همج لا يستحق أبداً نعمة «حقوق الإنسان». إن احتراف ترددها على مسامعه من دون أن يتعرف إليه يخيفه كثيراً، لأن ذلك يعني، حقوق الإنسان الإسرائيلي في أرض ليست له، ما يبشر بموجة جديدة من القمع لتأديبه.

يقول الفلسطيني: لا نريد أن نبرر دمنا. لا نملك سواه لندافع به عن بيوتنا وشوارعنا وحقولنا ومدارسنا وأمهاتنا وآبائنا وكنائسنا وجوامعنا وكتبنا وما بقي لنا من حفنة وجود.

ماذا نقول لكم؟ عندما تسمعونهم ينعتوننا بالإرهاب، وأننا نرتكب عمليات يقتل فيها مدنيون، نحن نسميها أعمالاً استشهادية، فيما يطلقون عليها عمليات إرهابية؟

ما أفظعنا بالفعل! ما أكثر ما تسيل من دماء! ما هذا الأسلوب الفج؟ إلى أي مستوى من اليأس وصلنا، حتى بتنا نفجر أجسادنا في الأماكن العامة؟

من حقكم أن تسألونا عن ذلك بالفعل؟ من حقكم أن تفتحوا لنا

سجلاً أسود. إنما أي يأس أعظم من هذا اليأس الفذ، عندما لا نملك لمقاومة الطائرات والقنابل الذكية و«الأباتشي» والصواريخ والدبابات والمجنزرات إلا حجارة صغيرة وقطرات من الدم نسفكها.

ليس عندنا أسلحة تصمد ساعة أمام طغيان القوة العسكرية الإسرائيلية، وليس في العالم من يساعدنا على وقف النزف، وليس في العالم من يعاقب أو يلوم أو ينصح إسرائيل بالكف عن قتلنا.

يا أطفال أميركا، إنهم يقتلوننا من زمان، وبكل أنواع الأسلحة، بما فيها، زرع القنابل في الأسواق العامة. وإليكم بعضاً من مذابحهم الفريدة:

بتاريخ ١٩٣٨/٧/٤ ألقيت قنبلة يدوية على سوق حيفا، فقتل ١٨ عربياً وأصيب ٣٨ آخرون. وبتاريخ ١٩٣٨/٧/٦ انفجرت سيارتان ملغومتان في سوق حيفا فقتلت عدداً من العرب. وفي اليوم نفسه انفجرت في القدس القديمة قنبلة يدوية وضعتها عصابة «الإتسل» وأدت إلى مقتل شخصين وجرح أربعة آخرين. وبتاريخ ١٩٣٨/٧/٨ انفجرت قنبلة يدوية في سوق خضار عربية فقتلت ١٢ عربياً وأصابت ٢٩ آخرين. وألقيت قنبلة يدوية أمام أحد مساجد القدس أثناء خروج المصلين فقتل عشرة مصلين وأصيب ثلاثون. وفي ١٩٣٨/٧/٢٥ انفجرت سيارة ملغومة في السوق العربية في حيفا فقتل ٣٥ وجرح سبعون. وبتاريخ ١٩٣٨/٧/٢٦ انفجرت سيارة ملغومة في سوق القدس العربية فقتلت ٣٤ عربياً وجرحت ٣٥. وبتاريخ ١٩٣٨/٦/٢ انفجرت قنبلة في سوق بطيخ في القدس فقتل خمسة من العرب. وبتاريخ ١٩٣٩/٦/٢٩ هوجمت ٦ حافلات عربية في تل أبيب

ورحوبوت وتباح تكفا، فقتل ١١ عربياً. وبتاريخ ٣/٧/ ١٩٣٩ ألقيت قنبلة يدوية على مقهى في حيفا. وكان معدل القتلى من الفلسطينيين قبل إعلان دولة إسرائيل بمعدل ١٥٠ قتيلاً في الشهر من المدنيين.

كان الهدف المفضل للصهاينة خلال عشرة أعوام هو المقاهي والمطاعم والفنادق والمحال التجارية والمنازل السكنية والمكاتب والشركات والإدارات العامة والمدارس العربية. ففي تفجير فندق الملك داود في القدس قتل ٢٠٠ مدني معظمهم من العرب والإنكليز.

ليس في العالم ميزان واحد. لكل مرحلة ميزانها. ولكل جماعة ميزانها. إن الحقوق هي واجبات لنا أحياناً، وحقوق علينا مرة أخرى. وما يسمح به للإسرائيليين مضاعفاً مئات المرات، لا يسمح به للفلسطيني ولو بنسب ضئيلة جداً. هل سمعتم بمجزرة كفر قاسم؟ اطلبوا من أهلكم أن يحضروا لكم فيلم برهان علوية.

لا تنسوا كفر قاسم. إنها أول صبرا وشاتيلا، ولم تكن خاتمتها، فبعدها قانا وجنين و... رجاءً لا تصدقوا ما يقال عن الديموقراطية في إسرائيل. هل تعرفون نلسون مانديلا؟ لا شك في أنكم تحبونه مثلما نحبه. كتب مذكراته الشيقة عن نضاله ضد الاستعمار البريطاني والتمييز العنصري في جنوب أفريقيا. وجاء في مذكراته أنّه عندما درس الحقوق في بريطانيا كان شديد الإعجاب بالديموقراطية الإنكليزية، وطمح إلى تحقيقها في بلاده. وهذه الديموقراطية المعجزة، هي التي استعمرت وغزت وأنشأت نظام التمييز العنصري ودعمته ودافعت عنه حتى النهاية، وهي التي أودعته السجن لما يقارب ربع القرن.

ماذا تنفعنا ديموقراطيات تسحقنا وتستعبدنا وتمحونا وتستأثر بأرضنا وسمائنا ومياهنا وأجسادنا؟ ماذا تنفعنا ديموقراطيات لا تنتخب إلا أجسادنا أهدافاً لرماياتها؟

ماذا نريد؟
لعلكم تستطيعون مساعدتنا في أمر واحد، وهو أن تفهمونا فقط. لقد تعبنا من دفن قتلانا. تعبنا من زيارة شهدائنا. تعبنا من حفر قبور كل يوم. تعبنا من مسيرات التشييع والتأبين. إننا نحب الحياة، واستقبال الفجر صباحاً، وتوديع الشمس مساءً، والتقاء الصبايا عند العصر، ونثر الغزل على شعرهن، وكتابة القصائد الشهية لهن، وسرقة قبلة من وجناتهن.

تعبنا من جنس الموت، ونوّد لو نغفو قليلاً على صدر حبيبته، ونسرّح شعر أحلامنا، ونطير كالفراشات. لو نعد النجوم، أو نصعد إلى القمر لذة، نستسلم إلى كتفي أم، أو نسقف منزلنا بالطيور، أو نداعب الهواء، أو نتمشى بين كلمات الكبار. نودّ أن نصدق الحنين الذي ينتظرنا على أرصفة، أن نقلد آباءنا في شرب القهوة وتدخين أول سيجارة ممنوعة، أن ندس في عب الصبايا قصائدنا الغجرية، أن نأكل السندويشات على ناصية السينما، أن نحضر حفلات الأعراس ونشتهي ليلة الدخلة عندما يضمنا الجنس إلى قداسه الجميل، أن نكتب شعراً نعوض فيه أحزان محمود درويش، ونعيد إليه حصانه الوحيد المتروك، أن نراسل سميح القاسم بخبز يطيره الحمام إليه.

تعبنا من مزاولة الموت ومن صحبته لنا ومن نومه في فراشنا ومن جلوسه معنا إلى مائدة البكاء. نتمنى أن نفرك أصابعنا شراهة عندما

يحضر صحن الحساء، أن ندرس الألوان ونتعرّف إلى أقواس الغمام ونمرّن رجولتنا بالعبور تحته، فلا يتغير جنسنا كما تقول الخرافة. أن نقرأ والت ويتمان، أن نقلّد الشعراء المفقودين في فيلم نعطيه لغتنا. أن نمثل روميو وجولييت. أن نترجم قيس وليلى، ونشفق على الملك لير. نودّ أن نقرأ «الأمير الصغير» لـ سانت اكزوبري، و«المحبة» لجبران خليل جبران في «نبيه»، ونؤثث لأيام نعزف فيها موسيقى عربية، تشبه أعمدة المساجد، عندما تنتصب في الباحات أعمدة لمناجاة الأبديات. نودّ أن نكون عاديين جداً، أطفالاً ينسجون بابتساماتهم وأفراحهم ثوب السماء.

لكن هذا لن يحصل، فما زال أمامنا شوط إجباري. مطلوب منا أن نلعب مع الذئب، وأن نكون معه كالحملان، كي يرضى العالم عنا، ويتهمنا بالغباء كما اتهمنا في العام ١٩٤٨، بأننا بعنا أرضنا وهربنا منها.

ما زال أمامنا مشوار بعيد: أن نمشي حفاة على الحجر، أن ننام على وسادات من شوك، أن نأكل المسامير مع كل لقمة، أن نرقص على الخناجر، أن نغني في بئر، أن نكتب عن البرتقال بدل أن نقطفه، أن نتذكر جلد الكتاب، بعدما ينضج جلدنا، أن نبقى في جاذبية المقتلة.

ما زال علينا أن نبرهن، أننا لسنا أجانب في بلادنا. وسنقوم بذلك بوضوح، وفق روزنامة لا مفر منها.

هل قرأتم ما كتب عن مواقيت الفلسطيني؟
«ماذا أعددتم لنا هذا المساء؟» لأن مهاراتنا تبدأ دائماً عند المساء، وبعد استضافة الليل.

ويجيب أحدهم عنا، ونترك لكم أن تتعرفوا إلينا من خلال ما تبقى لنا من أوقات، لغير الأحلام.
«ماذا أعددتم لنا هذا المساء؟»

يقول الرواة الذين شاهدوكم، إنكم بخير، وإنكم مصابون بأشرعة المواجهة، والريح مواتية، وبكم لوثة لا شفاء منها: فلسطين. والعدوى كعشق الهشيم، وقد حان وقت الكتابة في منتصف الصفحة من جهة القلب، فهل ستصبحون على نار كموج البحر يرخي سدوله؟ أم ستمسون على قارعة الدم، تفتشون فيها عما يفزع المدججين بخوفهم واغتصابهم، حتى أظافر أرواحهم المسبوكة من نحاس أصفر، من نحاس العصر؟

ماذا أعددتم هذا السحَر؟
قالت الأخبار المسرعة إنكم لا تنامون، بحجة طوفان الأرق فوق أرض ممنوعة من النوم ومن كسل الحلمات، وممنوعة من قيلولة الأحلام. وتقول الأخبار إن الأرض كانت تركت حنجرتها للغناء الجميل، بعدما أدمنت ندبها الحزين، وإنها فرحة، تنبض كالعاشق إذ يرى في العري ليلى.

ماذا أعددتم لنا هذا الظهر؟
تقول الأمهات إنهنّ يدخلن الدارة قبل فوات الشمس، ولن يأكلن، إلا إذا اعتلى الدخان القصبات والقرى والشوارع والأزقة والمخيمات. وتقول النسوة إنهن لن يضعن قدراً فوق نار لن يوقدنها بإصبعهن. وسيجعن، ولن يأكلن. فالحرة لا تأكل من ثديها. وفلسطين لن تأكل إلا من لحم غزاتها، فحلال وحده هذا الحرام. وتقول الجدّات إنّه في قديم الزمان، مثل هذا الزمان، خرج من جرح الزيتون ضوء

شجاع، كسّر الأغصان، وجعل من جدائلها سيوفاً ومقالع، وحارب العفاريت والجن والمارد الأصفر وإنّه لم يعد. لكنهم رأوه في آخر الزمان يتسلق الزيتون ليقرأ فاتحة الشجر. فها هو الشجر يسد المنافذ، ويطلع من خاصرته ضوء شجاع، يلمع كمستحيل يتحقق للتو.

ماذا أعددتم لنا هذا العصر؟
في حديث الأجداد، أن صغاراً جداً، خرجوا من الكتب والدفاتر، وشتتوا الحروف في الشوارع، والتحموا بقبضات هوائهم، ومن الندى القاطر من لهاث جباههم صاغوا حجارتهم، وبلوعة الآخ والآه والله، ضربوا أخمص العدو وتوابعه الرثة، وسجلوا قبل العصر، وفي الدفتر اليومي، واجبهم المدرسي. قاتلوا بالنفس حتى النفس الأخير، وبالحرف حتى الحجر الأخير، والجملة النهائية «إليه راجعون». فآخر الآيات طوبى لكم، وهذا هو شعبي الحبيب الذي به سررت، فله اسجدوا. وسجدت شمس العصر، وخرج يشوع بن نون من سطوته الخرافية، ودخل في ليله، كأنّه ابتلى بالعمى، ولم يعد يجيد من كل نبوءاته، إلا إطلاق الرصاص بشكل عشوائي دقيق، ليصيب مقتله في كل شهيد.

ماذا أعددتم لنا هذا المغيب؟
يقول الذين لم يعودوا اليوم من أزقة المخيم وشوارع المدن وأرتال الحقول المدللة بدمها الطيب: «إن هذا نهار آخر»... هذا نهار آخر، استطال حتى أعلى المآذن، فرأت فيه أجراس القدس إلهاً، يشبه طفلاً ولد في مغارة، ورباً أسرى بعبده ليلا.، وإن هذا النهار، كان به عدوى الضوء، فكان نهار آخر يمتد إلى نهار آخر. كأن الزمان فرغ من ليله. وإن هذا النهار امتنع عن التوقف، فسال وسار وصار، كأنه عصر من الدقائق تفجّرت فيه الأرض ألماً ودمعاً، سحاباً ودماً.

شعب يختصر شعوباً، غفت منذ هنيهات مديدة الزمان، ونامت تحت إبط السلطة والسلطات والمصالح، خوفاً من جراد الضمير، يأكله ويمعن قضماً في يباسه الأزرق، لأنه لا حول ولا قوة.

ويقول أولئك الذين ما آبوا بعد، إنهم أبوا الابتعاد من خط النار، وخطوط التداول الوطني، ورموا فوق الخوذات المثقلة بالتواءات تقنية أجسادهم الناصعة، فقرأ الجنود ما فيها، فخافوا من أن تنفجر فيهم عروقها، فانفجروا حقداً فيها وكان نهار. وكان نهار. وبينهما ظل وطن يتأرجح، كأنه السكين المطعون أو الضحية الطاعنة.

ماذا أعددتم لنا في هذا الزمان؟
الجواب: بسبب موتنا، فإنه من المرجح جداً أن تعود فلسطين إلى حلمها، فيرحل عنها الاحتلال، وتنفق طاقتها من أجل سلام حقيقي. سلام غير مبتذل وغير مرصع بالجمل والتواقيع. وسلام غير مرفق بالتنازلات. سلام من طبيعة الحقوق، من نوايا الناس، من حجم الأضاحي: من ثقافة إنسانية فذة يتآخى فيها الجميع على الخبز والعدل والثقافة والإبداع والشعر.

وإلى أن تحين الساعة، اسالوا هذا العالم المتحنّن بضميره، إننا نحبكم، فلماذا يكرهوننا؟ إننا نحب الحياة فلماذا يكرهونها لنا؟

ستعود القدس عاصمة الله، عندما تخرج منها شياطين الاحتلال، ونتفرغ لصنع الملابس الشفافة، لملائكة الأرض الطيبين، أطفال هذا العالم، الأطفال الذين سمعوا من يسوع «دعوا الأطفال يأتون إليها» فجاؤوها. واستقبلناهم: هوشعنا في الأعالي. مبارك الآتي باسم السلام.

الحلم الخامس

قبور من السماء

نستحق أن ننام، ونفلش نعاسنا على راحتنا. كنا ذات يوم آخر، نشتهي أن نحلم بنزهة إلى أي مكان، نأكل فيه حتى التخمة، ونشرب حتى الثمالة، ونرقص حتى الإغماء، ونغني حتى تطرش السماء، ونلوّن أجسادنا حتى تغار الطبيعة وتحمرّ حسداً.

كنا، أطفال العراق، نربي ذات يوم شهوتنا للملذات الدنيوية والأفراح السماوية. كنا نريد أن نكون في أحلامنا فراشاً يطأ الهواء بجناحيه ويقيم في غرف بلا جدران. وكنا نودّ ألاّ يتوقف اشتهاؤنا أبداً، وألاّ ترتوي حواسنا الخمس من اللمس والشم والذوق والضوء وعطر العالم. كنا بحاجة إلى أن نصرف وقتاً ممتعاً في أحلامنا، كي نعيش في الوهم، حالات بلا حرمان، اعتدنا عليه طوال طفولة مديدة. كنا نرغب بعدم التوغل في

الكهولة الباكرة والبؤس الذي تحوّل إلى قمامة تسد علينا مائدة الروح.

كنا، نحن أطفال العراق، نتمنى أن يتحقق ذات ليل آخر، حلم نلتقي فيه بأصدقائنا في أميركا، ونكون مثلهم بثياب أنيقة وربطات عنق ملونة، وشعر مدهون بسواد معطر، وأحذية لمّاعة، كأننا ذاهبون إلى كرنفال راقص، لا يحضره إلا الأطفال. وكنا متشوقين إلى صحبتهم إلى حدائقهم التي لا تعطش إلى خضرة طوال العام، لنلعب معاً ونفتك بالرتابة وننتقم من المسافات ونوطد إقامة دائمة في مدار الأحلام.

كنا على وشك الخروج من العراق المدنف في حصاره، إلى أحلامنا. قطعنا جميعاً بطاقة انتماء إلى نومنا، وقررنا أن نعيش تفاصيل حلم، تنسجه وساداتنا المهروسة برؤوس متعبة ومشوشة.

ونمنا. وكان ما كان.
يا إلهي! ما هذا المنام؟
حلمنا جميعاً، حلماً واحداً، ذات ١١ أيلول من العام ٢٠٠١. كنّا في مدينة نيويورك. وكان الوقت بعد الصباح قليلاً، وشمس أيلول ترسم في السماء دائرتها، عندما ظهرت طائرة شاذة، واصطدمت ببرج راق تحوّل في لحظات إلى كتلة من لهب واستغاثات وارتطام.

خفنا. ما هذا الكابوس؟
فتحنا عيوننا مرة أخرى، على سماء تطاردها طائرة أخرى، انتحرت في برج ثانٍ، فاشتعل من وسطه وراح يتدفق لهباً. شقيقان يحترقان في عراء فضائي.

خفنا. انكسر قمر النهار. مدينة نيويورك يحترق ذراعاها الممشوقان إلى السماء. وسكان البرجين يلوحون بخوفهم من أماكن عالية، من سطوح ممنوعة، من غرف مسوّرة بالدخان. يحملون أجسادهم كمناديل استغاثة ويفرّون من النار إلى العراء ويسقطون كعصافير أضاعت أغصانها وأجنحتها، فاتكأت على فراغ يملأ المسافة بين النار والانهيار.

خفنا أكثر. البرجان يقاومان. النساء والرجال والأطفال الذين كانوا قبل دقائق على مكاتبهم وفي أروقة البرجين، تحوّلوا إلى رهائن أقفلت أمام أقدامهم أبواب النجاة، فصاروا يشبهون استغاثات.

خفنا وارتجفنا. إنّه كابوس ولا شك. رأينا رجال الإطفاء يدخلون أحياء ويخرجون موتى أو لا يخرجون. مدينة يطاردها انهيار مفاجئ، برج يتكئ على نيرانه ويسجد ركاماً على مساحة من غبار يشبه يوم الحشر. برج آخر يركع على أعمدته الواهية ويسقط في هذيان محموم.

خفنا وانتابنا هلع. قبران واسعان يسقطان من السماء، والمدينة تفقد ذراعيها المرتفعتين، والمعدن تحول إلى دهن ذائب وفجيعة غير مفهومة، وكأفراس أطلقت النار على رؤوسها، وقعت وهي تنشج بعيون مفتوحة على لماذا؟

المدينة توغلت في الفجيعة، ومضت ركاماً.
المدينة الرائعة يسقط جسدها المنحوت من صلابة وعناد في اللهب، يقتلع النار مسافات اعتلائها، تتحول إلى مدائن من غبار. غبار يشبه يوم النهاية الفوضوي، «الأبوكاليبس» الهذياني، يوم «البيغ بانغ»

المضاد. ولبست الشمس ثياب القيامة، أغلقت عينيها، ودخلت نيويورك في التيه والفزع والخيبة و«لماذا»؟ فيما الفضاء من تراب ومن «يا إلهي»!! و«لماذا»؟

ورأينا ما لم يُرَ من قبل. لم نفكر كثيراً. في مثل هذه الحالات، ينصرف الوقت إلى إنتاج ألم صافٍ، ألم غير مشوب بالتفسير، ألم صحيح... فالناس المحاصرون، كانوا قبل لحظات يفكرون ويعملون ويتحدثون ويجتمعون ويستعملون الهاتف ويشترون ويبيعون ويكتبون ويبتسمون ويلبسون ويوضبون ساعاتهم، ليعودوا بعد نهار طويل إلى عائلاتهم: الشاب إلى حبيبته، والصبية إلى حبيبها، والأم إلى أولادها، والوالد إلى أسرته، والجميع إلى أفراحهم الكبيرة وهمومهم الصغيرة. كانوا قبل حصار النار، مهتمين ببعض الفسحات النهارية، للجلوس في مقهى واحتساء «النسكافه» أو المرطبات، وتدخين سيكارة، ومداعبة يد، وقطف قبلة، وشراء هدية، وثرثرة ضرورية لملء الكلام باللا معنى، للتخفيف من وطأة العبارات والأرقام المضنية التي تعج بها المكاتب.

كانوا قبل ذلك بقليل، ربما بساعة أو أكثر قليلاً، ودعوا أطفالهم الذين توجهوا إلى مدارسهم، وميّلوا على أمكنة حميمة، وسكبوا القليل من المشاعر في أمكنة تعطي المدينة روحها. كانوا يحلمون بيوم صيفي على وشك أن يودع فصله، ويدخل في شتاء يحرم الناس من متعة الشمس الرائعة.

ما هذا الذي نراه في منامنا؟ لا شك في أنّه كابوس، وربما هو أضغاث رؤى بغدادية، ليوم شهده آباؤنا في موقعة ما. ولكنهم أبداً، لم يتحدثوا أمامنا عن يوم الحشر في مدينة نيويورك، التي غيّرت

وجهها، وارتدت ثوب التيه والقشعريرة والفزع والرعب ومرادفات الموت.

مدينة في وضح الصباح، تبحث عن قمرها. العتمة أشباح فاحمة من غبار يغزو الناس ويطاردهم في الشوارع. سحب من حطام يتناثر كالبركان. انشطار كزلزال لا تقوى عليه مقاييس ريختر. فالمدينة العظيمة البهية الرائعة المسكوبة من معدن وناس ومال وهندسة وسماء... تهدلت، وتوشت بالقتلى. المدينة الكونية الأولى، تنكس طمأنينتها، تنطح الأرض بسحابة من نار وركام. تنكسر مرارة. تبحث عن معنى ويقين، فلا تجد إلا البكاء والوجوه الذاهلة والأفواه التي تصرخ بلا أصوات.

وبكينا كما لم نبكِ مرة من قبل. كانت شفاهنا تتمتم دمعاً مبتكراً للتو. مريع ما نراه. لا، هو ليس حقيقياً، إذ لا يعقل أن تنتحر الطائرات هكذا. غير ممكن. من يصدق؟ ولكننا رأينا ذلك بأم الحلم. بعيون مغلقة رأينا ذلك. تساءلنا، ماذا حلّ بركاب الطائرات. يا إلهي! إن بين الحطام واللهب رائحة شواء مقيتة، رائحة أناس تحوّلوا دخاناً.

من؟ كيف؟ لماذا؟
قلنا لا يعقل أن يكون ذلك حادثاً. قلنا يعقل أن يكون حادثاً، لو أن طائرة واحدة انتحرت في البرج الأول. ولم نقل شيئاً عندما قصمت الطائرة الثانية عمر البرج الثاني.

مَنْ هذا المجرم إذاً؟ مَنْ هؤلاء القتلة؟ مَنْ هم السفاحون؟ سألنا.
أي حيوان بشري خارق الهمجية، يصطاد الأبرياء في أماكن

عملهم؟ أي شيطان رجيم، هذا الذي عرّى مدينة من شبابيكها ونوافذها وطمأنينة أهلها ورماها بسحب نارية؟ من قتل جسد الإسمنت القاسي؟ من حوّل السماء إلى إيقاع طويل للذعر؟

ولمحنا أطفالاً يركضون. رأينا أمهات اتشحن بدم، يركضن في الشوارع الهائمة. رأينا جموعاً كالنازحين أو اللاجئين أو الهاربين من مذبحة أو مجزرة تزحف باتجاه ما، من مدينة مصابة بطاعون جديد. رأينا شموعاً تضاء، وتسكب ذوبانها دمعاً أبيض. رأينا أنفسنا في نفق، ونكاد نختنق. إنه الغبار النيويوركي صبيحة ١١ أيلول. إنّه الركام يحيط بما يشبه أسرة ننام عليها. وفجأة ارتطمنا باليقظة. خرجنا من نومنا كأهل كهف ناموا أزمنة. كانت وجوهنا تشبه مساءً ذبيحاً، وأيادينا تبحث عن مسامها، ومحاجرنا تبحث عن عيوننا، وثيابنا تبحث عن أجسادنا.

صبيحة ذلك اليوم تهنا من هذا المنام. هربنا من كابوس مجنون، وحمدنا الله، لأن ما رأيناه في منامنا، كان حلماً فقط. بسملنا وحمدلنا وفركنا عيوننا وقرّرنا بعد اليوم ألا نشتهي أحلاماً لذيذة أو أحلاماً شهية. واقتنعنا بأن نترك للوسادات حرية اختيار ما نراه ليلاً، مكتفين بنصيبنا من عذابات النهار الطويلة، وسعادات الليل القليلة.

نفضنا عنا خوفنا ومضينا جميعاً إلى أمكنة عراقية متعثّرة في تواصلها، وأقمنا في صمت، شبه نهار تقريباً حتى بلغنا أن شاشات التلفزة في العالم كله، تنقل مشاهد اصطدام طائرتين في برجين عاليين في مدينة نيويورك.

يا الله! نحن لسنا نائمين الآن. الكابوس يطاردنا في اليقظة. إن

الحلم الذي رأيناه في مناماتنا، كان حقيقياً جداً. إن نيويورك تشبه الذبيحة.

نعم، بكل لوعة، كان ذلك الحلم حقيقياً. كان ذلك الكابوس أقل وطأة علينا، من إعادة مشاهد حقيقية. وتهاوينا جميعاً في أحزاننا كما تهاوت مدينة فقدت ذات صباح جسدها.

تهاوينا ولم نعد نقوى على النطق والفهم والسير في أي اتجاه.
فما هذا العالم الملعون؟
ما هذا العالم الموبوء بالعنف؟
ما هذا النزيف الأبدي المتنقل من قلب إلى قلب؟
ما هذا العالم الذي تعيش حناجره على شفرة؟
ما هذه المذبحة المنتشرة في الجهات الأربع؟
هل يستحق الأطفال هدية دموية لصباحاتهم؟

أغلقنا عيوننا، قرّرنا أن نعلن الحداد على مدينة جميلة، وأناس طيبين أبرياء، وأطفال حزانى يبحثون عن أهلهم الذين قضوا في النار والركام والأنفاق المعتمة. وددنا لو نستطيع أن نفعل شيئاً، نحن الذين اعتدنا مصاحبة الألم، لنخفف عن أصدقائنا الأطفال في أميركا الذين زارونا في أحلامنا، ونسجنا معهم علاقة لا يقوى عليها طاغوت.

قلنا: «ليتنا هناك، لنواسيهم ونصلّي معهم ونحمل الشموع ونسير في مسيرات صامتة».

ساعة بعد ساعة، يوماً بعد يوم، صرنا نسمع من أميركيين لماذا

يكرهوننا؟ وفهمنا، أن السؤال تهمة علينا. وفهمناه: لماذا تكرهوننا إلا أننا لم نفهم لماذا وجه السؤال إلينا: لماذا تكرهوننا؟

وكم كانت مفاجأتنا صاعقة. لم نصدق في بداية الأمر أن إنساناً، يمكن أن يرتكب جرائم غير مسبوقة وبهذا الحجم وفي لحظة واحدة. لم نصدق أن يكون حجم الكراهية والحقد بلغ حد اختراع جحيم فظيع لهذا الكوكب. حرنا في الجواب. فالفاعلون، كما أذاعوا مراراً، وكما كتبوا دائماً، هم عرب، وصارت رسومهم معروفة وأسماؤهم متداولة وارتباطاتهم منسوجة.

وشعرنا ببؤس لا يوصف. لم نعد نهتم بمأساتنا العراقية المقيمة منذ سنوات. بحثنا عن معنى تعميم الكوارث. عن العين بالعين والسن بالسن. عن الشريعة والغاب. عن الذئاب والحملان. عن قايين وهابيل. عن القتل والفتك والسحل والتدمير والإلغاء والتعذيب والإبادة والاغتيال والظلم والطغيان والفقر والجوع والأمراض والأوبئة والأسلحة. وبحثنا عن الإنسان في هذه الغابة الشاذة، عن الطفولة، ولم نكتشف سوى أننا لسنا مسؤولين عن ذلك أبداً، ولا علاقة لنا بهذا البؤس الكوني المنتشر من قاع الكرة الأرضية إلى أعلى قمة فيها، حتى أبراجها العالية وسمائها الساقطة كقبر.

إن الإنسان بحاجة إلى إنسانية يومية كي يظل بشراً. الوحوش المفترسة لا تتخطى في افتراسها حدود غريزتها. وحده الإنسان يرتكب بربرية ويبتكر أنماطاً جديدة من الوحشية لا حدود لجنونها البربري.

وحده هذا الإنسان وحش متفوق.
وشعرنا بعد ذلك بأن حزننا مرفوض من الأميركيين، فدخلنا في

ذهول. لماذا يكون دمعنا على أحزانكم غير مقبول؟ ما هذا التمييز بين الدموع؟ لسنا تماسيح صغيرة تبكي أو تدّعي البكاء.

مذهل ألّا يصدقوا حزننا عليهم.
قلنا: ربما يكونون على حق موقت. فمرتكبو مجزرة نيويورك وفاجعة انتحار الطائرات يمتون إلينا بصلة مرفوضة منا. وهم ليسوا نحن.

وقلنا: بعد ذلك، سيصير الاتهام أكثر صوابية، عندما يعيدون ترتيب أحزانهم، ويعرفون المجرمين من الأبرياء.

استرسلنا في تفاؤل حزين، ثم شيّعنا تفاؤلنا إلى أهدابه المغمضة. توقعنا أن تزال عنا الشبهة وأن تحيد عنا اللعنة، ثم اكتشفنا أننا مجبولون منذ الولادة بالمعصية، وعلينا أن ندفع ثمن جريمة لم نرتكبها وثمن ضحايا بكينا عليهم مرتين: مرة في الكابوس الليلي، ومرة في وضح المأساة.

وحدنا في هذا العالم، بكيناكم ولم ننكركم بعد صياح الديك متهماً. فكرنا قليلاً، وببساطة من استسلم إلى البراءة، أن بن لادن شقيق توأم لزعماء أميركيين، وفارس المعارك الأميركية ضد الغزو السوفياتي في أفغانستان، ومنظر الإسلام الجهادي للعودة إلى جاهلية الطالبان، وأن هذا «الفارس» ليس من رحم عربي أو إسلامي، بقدر ما هو نتاج آلة سياسية وأمنية، موضّبة وفق شروط الاستخبارات الأميركية والأنظمة العربية القمعية، الشقيقة في الرضاعة، للولايات المتحدة الأميركية.

فكّرنا قليلاً، واستحسنا فكرة أن بن لادن بريء منا. لكن أميركا

أصرت على تنسيبه إلينا، وتوكيله علينا، وتنظيمنا في صفوفه عنوة، واتهامنا جميعاً، كعرب ومسلمين، بأننا نحسد أميركا ولا نحب ديموقراطيتها، ولا نرغب بتقنياتها العلمية، وضد ثقافتها، إلى آخر اللائحة الاتهامية التي بلغت حد ترتيب أمكنتنا في صفوف الإرهابيين.

استنكرنا هذا الاعتداء الأميركي علينا، لأنه تشويه متعمد ومقصود. فهم أدرى بين لادن منا، وأكثر معرفة منا بنظام التخلف الطالباني الذي يعود إلى العصر الحجري، أو إلى ما قبله كثيراً. واستفظعنا أن يخرجونا من حال الحصار المضروب علينا، إلى العراء الدولي لإنزال عقوبة الإعدام فينا. بالجملة.

التنفيذ: الآن الآن وليس غداً. وهكذا، صرنا على لائحة الأهداف الأميركية.
التهمة: إرهابيون.
المضمون: نحن البرابرة الجدد.

ذات يوم معروف، قاد الأميركيون جيوشهم إلى أفغانستان، وطردوا الطالبان، ولم يستعيدوا تمثال بوذا العريق، واستعاضوا عنه بتمثال آخر يتحرك في عاصمة محروسة حتى الأسنان، كما كان بابراك كرمال تمثالاً سوفياتياً محروساً بدماء أفغانية على أسلحة سوفياتية.

وعرفنا أن الحرب انتهت في أفغانستان، لكن بن لادن والملا عمر ظلا طليقين فيما اختفى من الوجود عدد كبير من الأطفال والنساء والعجزة والعائلات، تحت وابل القنابل الذكية في جمع الضحايا، بأعداد غفيرة، في لحظة واحدة.

ثم، قرأنا عن غوانتنامو.
ما هذا؟ حتى أميركا الديموقراطية، تملك سجوناً أشد فظاعة من السجون العربية! من يصدق أن السجون العربية متصّلة عبر أنفاق سرية بغوانتنامو؟

خفنا مرة أخرى.
خطير هذا العالم الجميل، إنه مسفوك في كل الأمكنة، ودمه مباح في أكثر الأماكن علانية، وفي «أرقى الدول ديموقراطية».

خفنا علينا وعلى الجميع.
وأسدلت الستارة على حفلة الانتقام من أفغانستان، وانفتحت الشهية لتنفيذ حكم بالإعدام بالعراق، والعراقيون وحدهم من بين شعوب الأرض يتعرضون لحفلات إعدام موسمية، مراراً من الداخل ومراراً من الخارج. نظام يقود حروباً تفتك بنا وبجيراننا، ودول عظمى تتمرّن بالسلاح الحديث في أجسادنا الحيّة. أما الإعدام بواسطة الحصار فهو أبشع أنواع القتل، لأنه إعدام بطيء وينفّذ بدم بارد يحفه صمت دولي خبيث.

تساءلنا ماذا فعلنا كي نستحق حرباً كل بضع سنوات؟ نحن الأطفال لا علاقة لنا بالحروب. إننا ضحاياها المثاليون.

وفي مرمى أيامنا المتصلة بالموت البطيء، حرنا في تفسير عداء أميركا. سألنا: لماذا نحن؟

قيل لنا ولم نفهم: نحن دولة راعية للإرهاب، ونملك أسلحة دمار شامل، ونخبئ أسراراً علمية. ونحن نظام دكتاتوري، وضد الشرعية

الدولية، ولم ننفّذ القرارات ذات الصلة. ونحن عصاة على العالم. وبلد موبوء إلى آخره.

لسنا أغبياء كي لا نفهم: إنما لم نفهم لأننا لم نصدق التهم. وسررنا لأن دولاً كثيرة لم تصدقها، وأن الاستعراضات التي تقدمت بها أميركا لإدانتنا دولياً، لم تقنع فرنسا وألمانيا وروسيا والصين وثلاثة أرباع الكرة الأرضية.

قلنا نجونا، فالعالم معنا، إلا أننا في سرنا، ازددنا توجساً. فقد عرفنا بالتواتر، أن الحروب العراقية في أولها، كانت لمصلحة أميركا، وأن الأسلحة القتالة كانت هبة أميركية مشروطة، وأن أميركا أغلقت عينيها عن مجزرة حلبجة، وأن الدكتاتوريات في العالم، اختراع الفراش الأميركي، وابتداع لعبقرية التبعية، وأن الشرعية الدولية تشبه دكة العاهرة، فعندما تضع فيها ديناراً يسقط عن خصرها إلى أسفل فخذيها، وإن لم تفعل وأثبتت طهارتها، رميتْ بتهمة عدم الصلاحية.

ازددنا توجساً من أميركا، لأنها لن تقبل بأقل من حرب. والتظاهرات والشعوب والمثقفون الذين يكرهون نظامنا الكريه، وقفوا إلى جانب الشعب العراقي، وقالوا لا للحرب. أحياناً، كنا نرتاح إلى تفاؤل ضرير ثم نطرده إلى حتفه.

نتفاءل بأميركيين، خرجوا بالملايين ضد الحرب. بكينا فرحاً عندما رأينا مايكل مور، هذا الأميركي الرائع، يقول لرئيسه: «عار عليك يا بوش». تأثرنا حتى الدمع ببلاغة الكلام القليل الذي أطلقه داستن هوفمان في برلين: «لا تتاجروا بدماء ١١ أيلول». يومها، وقفنا له،

نحن أطفال العراق، كما وقف له المدعوون الأنيقون المحتفلون في برلين. أحسسنا أننا لسنا وحدنا، ونستحق العدالة والحق. شكرنا ميريل ستريب، هذه البطلة الحنون، هذه الأنثى المتمتعة بقداسة الإدانة الحاسمة لحرب تقسم العالم قسمين: الأخيار والأشرار. تحمسنا لسبايكلي، هذا المناضل الفذ من أجل العدالة والحق.

وشكرنا في سرنا ريتشارد غير الداعية للسلام وشريكته الفتّانة جوليا روبرتس، «المرأة الحسناء» أو «الطيبة الحسناء»، وأسفنا لصوت ويتني هيوستن الذي انحاز إلى جنازير الدبابات وأزيز الطائرات ضد صراخ الأطفال وجراحهم في بغداد وفلسطين.

وشعرنا بالنبل الأميركي، لدى جماهير خرجت إلى الشوارع لتقول لرئيسها ومَن معه، لا للحرب نعم للسلام، وارتبطنا بأواصر الأخوة مع كل الذين اعتقلوا في تظاهرات أميركية، وبخاصة في سان فرانسيسكو. وهالنا أن تصل القبضة الأميركية إلى أطفال وفتيان وفتيات، وإلى شيوخ كبار، ورجال دين مسيحيين، وتزج بهم في الأغلال.

قلنا: إننا بشر مثلهم، وهذا العالم البشري مسكون ببشر حقيقيين جداً، وإننا نشبههم وهم يشبهوننا. نتنفس الحياة مثلهم، ويتنفسون الحرية أفضل منا، نشتاق إليها بشوق بلا وصال، فنحن في الحرية، قيس وليلى.

وقلنا: لسنا مسلمين ضد المسيحيين، ولا مسيحيين ضد المسلمين. نحن لسنا أسامة بن لادن والملا عمر، والمذاهب الرجعية الفتاكة والإسلامات المخيفة المحتضنة سالفاً من دوائر الاستخبارات الأميركية.

ارتحنا إلى الفاتيكان. شرّعت روما نوافذها وشرفاتها لمليون علم، لمليون لا للحرب نعم للسلام. اكتظت العواصم الغربية بإنسانية جديدة، سبقت الشارع العربي في محاولة إيقاف الزحف العسكري على بغداد. غير أن الإدارة الأميركية سحقت الجميع بقدميها العسكريتين، وصارت تشبه في أحلام يقظتنا، هولاكو الذي أحرق بغداد، هتلر الذي سفح الملايين، ستالين الذي اغتال أمة، أسامة بن لادن الذي اغتال الله والبشر.

لم نعد ننام. صرنا نحلم كوابيسنا في وضح النهار:
تخيلنا موتنا، رسمنا الأيام كما يليق بالحروب وتكومنا في الفجيعة. تخيلنا أن العراق، بعد طاعون الحصار، وفتكه بأكثر من مليون عراقي، سيعدم.

لم نكن قادرين على ممارسة السخرية البدائية، فالديموقراطية التي تشبه حبل المشنقة، لا تثير فينا إلا الهلع والإحباط. والديموقراطية التي لها أنياب أشد فتكاً من الدكتاتورية تقذف بنا إلى الرغبة في الانتحار، أكثر من مرة، كل نهار. تخيلنا كيف ستحلق الطائرات العملاقة في سماء قاحلة، وكيف ستنهال علينا قبور من السماء على مدار الساعات، في الليل وفي النهار.

تخيلنا كيف سيكون الحصار بالنار، قنابل ذكية وأخرى طائشة، قذائف مسمارية، وأخرى عنقودية، وغيرها بالأطنان، ستزرع في خريطة القلب داخل المدن، وعلى تخومها.

تخيلنا أن المقابر ستستيقظ من موتها، وتسجل احتجاجاً على قتلى لم يأووا إليها لدى سقوطهم، ومعاندتهم قانون الدفن وتعريض

أجسادهم العراقية لعناد غير مبرر. إذ يلزم أن يدلف القتلى إلى مقابرهم بأرجلهم إذا تعذّر على أحد أن يدلّهم إلى عتمتهم. سنعيش في عراءٍ دامس، بلا ماء ولا كهرباء ولا دواء ولا أمهات ولا آباء ولا جدات ولا حكايات ولا...

صرنا كالحكماء، لا نتكلم إلا قليلاً، وننكش التراب بأصابع أقدامنا، ونحاول أن نصلي قليلاً من دون انتباه. إن ما يجول حولنا، ينبئ بالسنوات العجاف، مضاعفة مراراً.

إنما، في سرنا، كتمنا أملاً ضئيلاً بالمستر بليكس والدكتور برادعي. كانا طوق النجاة أو حبل المشنقة. راقبنا كلماتهما بدقة. ظلا في منزلة بين المنزلتين: طوق النجاة وحبل المشنقة. فالعراق لم يخرج بريئاً من تهمة أسلحة الدمار الشامل، مع أنهم لم يجدوا شيئاً. وأميركا تصر على أن العراق مدنس بالأسلحة الفتاكة وأنه يخفيها.

لم نفهم: على المفتشين أن يجدوها، حتى ولو لم تكن موجودة. كان أملاً مراً.

وتخيلنا الفجيعة، تمتد من أم القصر حتى الموصل. النخيل يرفع هامته يأساً، دجلة ترتبك شفاهه بطعم الدم. الفرات يرتدي صمته ويعبر مغمض العينين. السندباد لا يجد مكاناً يؤوب إليه. الكتب السميكة والمخطوطات ستقفل عيونها لئلا تقرأ مصيرها. المتاحف ستقضم حجارتها خوفاً على حياة عمرها أكثر من خمسة آلاف عام.

تخيّلنا أن الهواء سيموت، وأن العراق الحضاري، سيعيدونه إلى

العصر الحجري، ويقتلون أمه الأبدية، بعد تقطيع ثدييها تحفة تحفة، وأثراً أثراً.

وتفلنا على الأرض. بصقنا غضباً. وها نحن قبل اندلاع الموت نقول لكم يا أطفال أميركا:
نحن لسنا أسامة بن لادن. ولا نحن سفكنا البرجين.
نحن لسنا خطأة العصر وجاهلية الملا عمر وهمجية الطالبان.
نحن مصابون بديكتاتورية كانت محظية أميركياً، وبأميركا المصابة بجنون القتل الواعي، عن سابق تصور وتصميم.
نحن، حزانى الفجيعة التي حلت في نيويورك.. سنكون ضحايا المذبحة التي سترتكبها أميركا في العراق.

نحن الذين نحبكم، نودّ أن نودّعكم برسالة كتبها أطفال مدينة ميلان في ٩ آذار ١٩٦٤ إلى الإنسان جداً، راوول فوللورو Raoul follereau:
«نحن، أطفال اليوم، مسؤولو العالم في العام ألفين.
الكبار يقولون لنا أن نغلب الآخرين.
نحن نريد أن نحب.
الكبار يعلموننا كيف نجمع الثروة.
نحن نريد أن نعطي.
لقد أخفوا عنا حتى الآن، وجود أناس يجوعون وأناس يتعذبون.
نحن نريد أن نكون نافعين للناس الفقراء في العالم.
نحن لا نريد، عندما نصبح كباراً، أن نمارس الحروب.

نحن نعيش بشكل لائق. لا ينقصنا شيء، نأكل عندما نجوع وننام في أسرَّتنا، فيما ٤٠٠ مليون طفل يتعرضون لآلام فظيعة في العالم.

نحن أطفال اليوم، نشعر بأننا مسؤولون عن العالم في العام ٢٠٠٠. إن اكتشاف الفضاء والمباريات الرياضية يثير فينا حماسة كبيرة اليوم. نريد دعوة كل الأطفال في العالم كي يتحدوا في ورشة كبيرة حدودها الكرة الأرضية، وهدفها أن تجعل العالم أكثر سعادة قليلاً. وأكثر من ذلك: أقل عذاباً، أقل مرضاً، أقل جوعاً، أقل انقساماً.

ولكي نبدأ فوراً هذه الورشة الكبيرة، نقدّم لكم سيد فوللورو ثمرة التضحية لعدد كبير من أطفال ميلان كي تستطيع مساندة أطفال آخرين أقل سعادة منا. إننا نشكرك لأنك علمتنا أنه ليس من حق أحد أبداً أن يكون سعيداً وحده».

نهدي إليكم هذه الرسالة يا أصدقاءنا أطفال أميركا، علّكم تذكرون في العام ٢٠٥٠، عندما تصبحون قادة ومسؤولين، أنه «ليس من حق أحد أن يكون سعيداً لوحده»، فالحقيقة الوحيدة هي أن نحب، وعندما يهجر الحب هذا العالم يصير اللؤماء أمراء، والغيلان ملوكاً.

تذكروا يا أصدقاءنا ما قاله أحد البرابرة في حروبه: الويل للمهزومين أي (VAE VICTIS). وإن العالم، منذ ذلك الزمن البربري يزداد مهارة في الترويع وتوزيع الويلات على المهزومين المنتقين.

فيا أصدقاءنا أطفال أميركا، إياكم أن تصدقوهم، لم تكونوا يوماً أعداء لنا، ولم نكن نحن أعداء لكم. نستطيع التأكيد لكم بصدق بتولي، أنهم اختارونا لنكون أعداءهم، وأنتم لستم هم.

نحن عندما ولدنا، أي عندما خرجنا من بطون أمهاتنا، وجدنا أمامنا

بندقية مصوّبة إلى رأسنا. ولو كنا نعلم أن ذلك سيحدث لنا منذ الولادة، لفضلنا البقاء هناك، نتأمل هذا العالم، ونصعد من رحم أمهاتنا إلى قلوبهن مرة أخرى. فخير أن نكون شهوة طفل جميل، من أن نكون أطفالاً برسم القتل.

سنشرح لكم قبل ساعة الرحيل. سنستودعكم حقبة من تاريخنا. العداء لنا ليس ابن البارحة، ولا هو عشوائي، ونحن لم نختر أبداً أن نكون أعداء لهم.من تلك الحقبة، أن مفكرينا في القرن التاسع عشر، على امتداد عالمنا العربي، اكتشفوا في الغرب بكارتهم الفكرية. امتحنوا ثقافتنا وثقافتهم، ونشأت بينهم شراكة في الحق والعدالة والدستور والقوانين والحداثة. كانوا في معظمهم يؤمنون بالديموقراطية والشورى والعلم والتقنية والحرية والشرعية والحقوق والواجبات.

خرجوا من الاستبداد العثماني إلى رحابة الفكر الغربي، إلى عصر التنوير وفلاسفته وأدبائه ومفكريه. عرفوا وتعلموا وتثقفوا وتأثروا، وحاولوا أن يسندوا مطالبهم السياسية إلى نتاج فكري حديث. كانوا مؤمنين بأدبائكم وعلومكم وكثير من أفكاركم. ترجموها ونقلوها وتحاوروا فيها. من أسمائنا اللامعة: رفاعة الطهطاوي، بطرس البستاني، عبد الرحمن الكواكبي، محمد عبده، طه حسين، فارس الشدياق، جبران خليل جبران وأمين الريحاني.

هؤلاء وعشرات سواهم من الكتاب والمفكرين ما كانوا ضد الغرب ولا ضد أميركا، بل إن بعضهم انخرط في مشروع التحرر من الاستبداد العثماني، وتحالفوا مع بريطانيا العظمى في الحرب الكونية الأولى ودفعوا ثمن الوعد بالتحرر دماً من عروقهم. خاضوا معارك

ضارية، ضد إخوتهم في الدين، وإلى جانب من هم ليسوا من دينهم، لبلوغ الحرية والاستقلال.

كنا حلفاء للغرب في بداية القرن الماضي، وأنتم جزء منه. افتتحنا المدن، الواحدة تلو الأخرى، بالقتال والشهادة. ولما فزنا جميعاً على العثمانيين، خسرنا نحن.

عاملونا كأعداء حقيقيين. باعوا دماء أجدادنا، بقبضة من المصالح. أهدونا، يا أصدقاءنا الأطفال في أميركا، بلاداً مقسمة بين بريطانيا وفرنسا، وزرعوا في جسدنا العربي، وعداً باسم بلفور، وأعطوا اليهود أرضاً ليست لهم. اختارونا كي نكون أعداء، فيما كنا نصر على صداقتهم. ومنذ ذلك التاريخ، ونحن نعيش في المحرقة.

حروب متسلسلة ومتناسلة.
لم تشهد منطقة في العالم ما شهدناه من حروب بكل أنواع الأسلحة الحديثة. لقد قتلنا مراراً. منذ قرن ونحن نقتل في فلسطين وفي سوريا وفي مصر وفي العراق وفي لبنان. ولا يبدو أن صبحاً ستدشنه شمس مسالمة.

هل تريدون أن تعرفوا لماذا يكرهوننا؟
اسألوهم.

نحن نظن أنهم يحبون نفطنا وأرضنا وثرواتنا أكثر مما يحبونكم أنتم، ولذلك، نحن ذاهبون قريباً إلى حرب أخرى.

ها هو العراق فوق الهاوية.

ها هي القبور تتساقط في برجين في نيويورك ومن سماء العراق الكالحة.
إن الجحيم تتناوب على بغداد.
الموت لم يعد مختبئاً في أمكنته المعروفة.

ها هو يتدفق، من أزمنة رآها السيّاب:
«دم، من نهود نسوة العراق طين.

نرى العراق، يسأل الصغار في قراه:
«ما القمح؟ ما المهود؟ ما الإله؟ ما البشر؟
فكل ما نراه
دم ينز، أو حبال، فيه، أو حفر
أكانت الحياه
أحبّ أن تعاش، والصغار آمنين»؟
سنقضي يا أطفال أميركا في «مدينة بلا مطر»

«من المستنقعات تصيح:
لاهثة من التعب
تؤدب آلهة الدم، خبز بابل، شمس آذار.
ونحن نهيم كالغرباء من دار إلى دارِ
جياع نحن... وا أسفاه. فارغتان كفاها
وقاسيتان عيناها
وباردتان كالذهبِ
سحائب مرعدات مبرقات من دون أمطارِ

قضينا العام، بعد العام، بعد العام، نرعاها، وريح تشبه الإعصار لا

مرت كإعصار ولا هدأت. ننام ونستفيق بغير ما رحمة وعيونكمُ الحجار نحسها. تنداح في العتمة لترجمنا بلا نقمة.

عيونكم الحجار
قبور إخوتنا تنادينا
وتبحث عنك أيدينا
لأن الخوف ملء قلوبنا...
جياع، نحن مرتجفون في الظلمة
ونبحث عن يد في الليل تطعمنا، تغطينا...
سمعت نشيجنا ورأيت كيف نموت... فاسقينا»

هذا ما كتبه شاعر العراق.
تلك هي نبوءته.
ستكون أجسادنا الوليمة.
فيا أطفال أميركا، يا أصدقاءنا الطيبين أغمضوا عيونكم إن المذبحة مقبلة.
بربكم. اسألوهم لماذا يكرهوننا ونحن نحبكم؟

الحلم السادس

أبانا الذي في السماوات

أحلام العراق لا تجد أطفالها. الأحلام تتجول في كل مكان، وتبحث عن مخيلة. إنما أين يقيم أطفال العراق؟ من يجدهم؟

وكان يوم عراقي آخر. يوم بائد. يوم من فحم. شرايين النهار صديد. بشرته من عدم. عيناه من ذهول بلا قاع، ويداه مسبلتان وآفلتان، وقدماه في سبات راكد.

وكان يوم عراقي توقف عن خطواته. ترسب كتلة من غبار وأنين وعظام وجراح وجدران منحدرة إلى حجارتها التائهة.

وكان يوم عراقي «بكل حزن الدهور». يوم يود لو يعود إلى أمس سحيق، أو يقفز إلى الحشر. يوم عويل صامت، وأناس يسألون

ظلالهم عن دمهم، ونساء تخلين عن صلواتهن وضفائر دعائهن وانشغلن بكفر مفاجئ.

كان العراق محفوفاً بالتتار... هولاكو الأبيض يتدرّب على تلوين دجلة والفرات بالحبر القاني والتاريخ المسكوب في دفتي آلاف الأعوام.

ذلك اليوم، خرّ العراق مقصياً عن جسده.
وكان ليل عراقي آخر، ليل قبل الأوان، ليل خرجت فيه الأحلام من وسادات منتّفة، تبعثر حليبها في قطن مندوف. ليل تبحث فيه الأحلام عن أطفال العراق.

طافت الأحلام فوق ما يشبه الأسرة، فما وجدت جسداً. خرجت إلى الأرصفة المخلّعة فما وجدت ملاكاً. تسللّت من خلف قبعات التتار ورمت نفسها فوق زغب التلال وأنامل السفوح وملاءات الأنهر وحنانات النخيل، فما وجدت إغفاءة. تسكعت في الأزقة، تجوّلت في المدن المسبية والقرى المنحنية والقصبات العجاف، فما وجدت ظلاً لطفل عراقي. جُنّت. دارت كالصوفي في طقس ملعون. دارت ودارت. هزّت أمكنة النوم ومراقد الموت، فلم تجد أحداً.

كان العراق بلا أطفال.
أحلام عراقية تبحث عن أطفالها.
فإلى أين تمضي الأحلام؟ أين تلقي ضفائر نومها؟
من يرويها غداً؟ من يتلوها؟
لا أحد؟!
بلى!

تسلقت الأحلام هواءً، وبسرعة بلغت شبابيك السماء، وقال إله حزين: إنهم هنا. ورأت الأحلام أطفالها، فاندست في غيومها، ونامت في مخيلة معطرة بدمع لا يبكي.

وذات صباح سماوي، نهض أطفال العراق من سحاباتهم البيضاء، ورفرفوا كصلوات، وتحلقوا قرب شبابيك السماء، ليروا وطنهم الذي خسروه. كان العراق بعيداً جداً عنهم، بعيداً إلى حد أحسوا معه أنهم سيلحّون على الله كي يعيدهم إليه «الآن الآن وليس غداً».

كان الله حزناً متراكماً. غضب عصبي يتوتر في صمته. ينظر إلى بغداد فيغمض عينيه. يشيح بصره إلى القدس، فتدمع عيناه. يطل على برجي نيويورك فيختنق صوته بألم دامس.

تحلق أطفال العراق حول حزنه وقالوا:
سامحنا يا الله لأننا حضرنا قبل الأوان. اغفر لنا لأننا عكّرنا صفو السماء. كان علينا أن نتأخر عقوداً كي نحضر بشكل طبيعي إليك، حاملين معنا غلال أعمارنا المديدة، فنفلشها أمامك لتسرّ بها. أليست السماء هي جنى عمر الإنسان؟

سامحنا لأننا أتينا بلا هوادة، ودفعة واحدة، واقتحمنا جنتك بفوضى عارية. نحن نعرف أنك لم تستدعنا، وكنت تريدنا أن نبقى مع آبائنا المفقودين أو المقتولين أو المسجونين أو الضائعين أو الأحياء موقتاً. ونعرف أنك كنت مصرّاً على بقائنا في أحضان أمهاتٍ انسلخن عن حياتهن سنوات، ليحتفظن بنا. ونعرف أنك كنت ترغب في أن نعيش في العراق بقامة عمرنا، ربما حتى السبعين،

وربما حتى الثمانين. ولكن ذلك لم يكن ممكناً. فالتتار سفكوا العراق.

نعرف أننا اقتحمنا السماء. لم نكن نرغب بالحضور باكراً جداً. هذا لا يعني أننا لا نحبك، بل إننا نحبك دائماً، وسنحبك دائماً أكثر. إنما، كنا نؤجل محبتنا للسماء إلى ما بعد عمر طويل. فالأرض طيبة المذاق. لكن هولاكو الأبيض، وسلالته من الطغاة والمسلحين والجيوش المطعمة بقدرة ذكية على الفتك والسحل التدمير والسفك، جعلت من مسقط رأسنا جحيماً.

نكشف لك أمراً قد لا ترضى عنه: لا نظن أن الجحيم التي أعددتها للأشرار والخطأة أشد قصاصاً من عراقٍ يتناوب عليه الظلم والقتل والاغتيال والشر والحرب على مدار الدقائق والساعات والأعوام والعقود. إن الجحيم، كما نظن، ليس أشد قسوة من سماء ملتهبة، وقبور تستعاد كل يوم، ونعوش لا تستقر على جنازة بصيغة المفرد. إن فلسطين جحيم منذ قرن. والعراق، جحيم منذ عقود. وعندما غادرناه، كان هولاكو يدشّن فيه قسماً جديداً لتعذيب وإذلال وإهانة قد تدوم أكثر من قامة أعمارنا.

فيا الله، عكرنا صفو السماء، وحمّلناك جلجلتنا، ولا نوّد أن يتحوّل فردوسك البهي إلى مناحة. فنحن لسنا سعداء هنا، وليتك تسمح لنا بالعودة موقتاً، لأننا مشتاقون إلى وطننا الذبيح، فربما نداوي جراح آبائنا، ونمسح دموع أمهاتنا، ونعيد ما سرق من متاحف بغداد ومكتباتها الدهرية. ونعدك بأن نعود إليك، بعدما تأذن لنا أنت بذلك.

قال الله لأطفال العراق: غداً أعيدكم إلى العراق. فالسماء، ليست إلا الأرض، كما يجب أن تكون. إنها ليست فوق، فقط، بل هي تحت، هناك، أيضاً. السماء امتلاء كوني، والأرض جزء منها، وسكانها هم ملائكتها وشياطينها.

فهم أطفال العراق أن الله سيسمح لهم بالعودة، فسجدوا على بساط من صلوات. رتلوا. سبّحوا وهللوا: هليلوليا... هليلوليا.

صباح اليوم السمائي التالي، استفاق أطفال العراق، فوجدوا الله فرحاً. قال لهم: صباح الخير يا أبنائي. اليوم ستعودون إلى العراق. وانشقت السماء عن أرض حقيقية، عن بلادٍ ينحني فيها ببهاء، نهران ينظمان الماء كالشعر، ويرصفان القوافي كالضفاف.

تطلع الأطفال من شبابيك السماء، فرأوا بلاداً رائعة الجمال: صحراؤها من ذهب يسمى رملاً، ونفطها من حبر يسمى خيراً، وهاماتها من قامات خضراء تسمى جبالاً، وسهولها من كف ممدودة كالسماح باتجاه العطاء تسمى مائدة، ونخيلها معلقات من فتنة وظلال يمتد تصفيقها إلى الرافدين وتسمى رطباً وسلوى.

ورأى الأطفال بلاداً يبتسم رجالها السمر، بعد عبوس مزمن، وترقص فيها النسوة على إيقاع حب لا ينضب، كأن الطقس العراقي عرس وأناشيد.

هذا العراق الحقيقي الذي رآه الأطفال، يشبه بلاداً أخرى كثيرة، يذهب فيها الأطفال إلى المدارس والملاعب والمشاوير، ويمضي فيها الطلاب إلى الجامعات والمختبرات والعلم والاختراع، ويرسم فيها

الفنّانون أشكالاً وألواناً عذبة الروح، ويكتب فيها الشعراء غير المآتم والمراثي والأحزان والمنافي.

عراق يتنفس ويعيش ويغني ويفرح بخصوبة، ويأكل من زاده وجهده وثمرات أرضه وخيرات تعبه. عراق لا يشبه سجناً كبيراً تحرسه تماثيل مرعبة. عراق طبيعي، يبني ويعمر ويكبر، يسافر كالسندباد إلى الدنيا، وتؤمه الدنيا لتتظلل تراثه الثري. عراق يسكنه الناس الطيبون والعاديون والمبتكرون والذين يتشيطنون أحياناً. عراق تمارس فيه السياسة بحرية والكتابة بشغف والرقص بانطلاق والعلم بإبداع. عراق ينتمي أهله إليه بنبل وكرامة، ولا يجيّر إلى عرق أو طائفة أو مذهب أو دين. عراق عراقي جداً، عربي جداً، إنساني جداً، أصيل جداً. عراق بلا غزو ولا غزاة. بلا اعتداء منه واعتداءات عليه.

وبعدما تأملوا ذلك بسرعة، طلب الله منهم أن يمضوا إلى هذه الجنة العراقية. أليست الجنة أرضاً كما يجب أن تكون؟ أليس الجحيم، إلا الأرض كما هي اليوم، وكما كانت على مر الحروب.

وفيما كان الأطفال يبحثون عن مسقط رأسهم، رأوا سماءً أخرى يلعب فيها أطفال آخرون. أميركيون وأفغان وفلسطينيون ومن شعوب الأرض كافة.

كم كان الله رائعاً. لقد خصّص لكل أطفال العالم، الذين قدموا قبل الآوان، سماءً تشبه بلادهم كما يجب أن تكون. بشغف كبير، بحث أطفال العراق عن أطفال فلسطين وعن أطفال نيويورك، وبسرعة اكتشفوا أنهم أشقاء طيبون، وأنهم لا يعيشون في غربة،

فالسماء التي اخترعها الله لهم، لا تشبه المنفى الجميل أو السبات اللذيذ أو النعيم الكسول.

وقرروا فوراً أن يقيموا صلاة لتكريم هذا الإله الطيب، ولما مضوا إليه رأوه حزيناً جداً، وغاضباً جداً، وصامتاً صمتاً يشبه العويل.
خافوا، قرعوا حناجرهم أجراساً، رفعوا أصواتهم قباباً وآذاناً.
فانتحى جانباً. ولما شعر أنهم يلحون عليه ويرجونه أن يكف عن الحزن، شق السماء بنظره فانفتحت على أرض ملعونة:
هذه هي نيويورك بأبراجها المتهاوية. قبور من السماء.
هذه فلسطين بمقدساتها الأبدية. قبور لا تنفطم.
هذا هو العراق في قبضة التتار.
هذه هي البشرية في قبضة الهمجية. البرابرة يملأون العالم.
بكى الله. أغلق السماء، ومضى إلى وحدانيته.

ذات صباح آخر، بدا الله شاباً حيوياً جداً. ففرح الأطفال في جناتهم ورقصوا كالملائكة. وهم عرفوا إبان إقامتهم مع الله، أن الملائكة لا أفواه لها لتسبّح باسمه. فهي تعبده رقصاً، كما يتعبد له أهل التصوّف.

جلسوا بقربه. كانوا أطفالاً من كل جنس وعرق ودين ولون، ومن بلاد لا عدّ لها. ولما استقر به المقام، شق السماء بحنانه، فانفتحت على أرض امتلأت شوارعها بالتظاهرات. المنظر فائق الروعة. مدن وعواصم وبلاد في قارات كثيرة، تسير بقمصان ملوّنة وشعارات ملونة، تطالب بالسلام ووقف الحرب.

أحسسنا أن الله فرح كوني، كأنه يردد: أنا صوت صارخ في برية

الشوارع، أعدوا طريق الحرية، هذا هو بلدي الحبيب.

وفجأة صار الله يسير في التظاهرات مصراً على الحرية والعدالة والحقوق وتوزيع الثروة وإلغاء الفقر.

ثم رآه الأطفال ينطلق من كل الأمكنة في الأرض إلى كل الأمكنة، يشد من عزائم الرجال، ويحرض النساء على النضال، ويدعو الأحرار إلى توسيع الدائرة حتى المنتهى.

كان إلهاً مناضلاً، يرفض الامتثال إلى الشرطة، يتخطى حواجزها الجبانة، يوزّع المناشير بكل اللغات، يرفع اليافطات من سياتل إلى سيول، مروراً بالقدس والقاهرة وبيروت وباريس وروما وسان فرانسيسكو وواشنطن وبغداد وكل العواصم. لم يقبل أن يتقدم التظاهرات، كما يحدث لدى متطفلي الإنسانية. قال: «من كان فيكم كبيراً، فليكن خادماً للكل». سار في الوسط، في الميمنة، في الميسرة، في المؤخرة. تحوّل بعصبية لافتة. كان صوته بصيغة الجمع. هو الوحداني الواحد الأحد لبس صيغة الجموع. تجسد في بشرية حقيقية، وإنسانية فذة، لا يجوع فيها فقير. كما قال القديس أغوسطينوس. إنسانية لا يعتدي فيها قوي على ضعيف، كما تعتدي أميركا وإسرائيل. إنسانية تزدهر فيها الحرية وتتعدد بتنوع الثقافات. إنسانية ليست سلعة، وليست سوقاً لبضائع سهلة، تبيد إنتاج المزارعين والفلاحين والعمال.

غريب جداً مشهد الله وهو يوقع على عريضة يطالب فيها بإلغاء عقوبة الإعدام، وإطلاق السجناء السياسيين. غريب كيف كان يلتحق بتظاهرات كثيرة في وقت واحد. كان يتعدد ويتوزّع

ويتفرّع، وكان قوياً. هنا يحمل يافطة دفاعاً عن حرية الرأي والكتابة والإبداع والعبادة، وهناك يقتحم المعابر المقفلة لإيصال رسالة إلى الرؤساء المصابين بصمم المصالح وشره الشركات وشهوة المال، يطالب فيها بتخصيص الأموال المسفوكة على إنتاج السلاح، لتحسين أوضاع المرضى، وإلغاء ديون الدول الفقيرة، ومساعدة الدول المتخلفة، ووقف الاستنزاف البيئي المدمّر للأرض، ومحاربة السيدا، ومكافحة الملاريا، وحماية الطفولة من الأشغال الشاقة في الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات والسرقات. وكان يحرص على تعكير مزاج الـ G8 وقراصنة دافوس، ومنعهم من التحدث باسم البشرية. وأحياناً كان يقرّعهم بصوته وقبضته، تماماً كما يفعل المتظاهرون.

كان الله موجوداً في كل مكان، وخصوصاً حيث يوجد بشر حقيقيون. وشعر أطفال العالم أن الله الذي يقيمون معه في السماء، لا يشبه الله الذي تعلموا عنه في حياتهم.

كم كان المنظر رائعاً! بشرية تبني سماءها بعرق جبينها بنبل وقيم وقوة متدفقة من القلب وأنوار العقل. كم كانت الإنسانية تقترب من إنسانيتها، عندما رآها الأطفال من عل تقيم سلامها على الحق والعدل والتراحم، فلا يضطهد شعب بسبب لونه أو عرقه أو دينه أو ثقافته أو مستواه المعيشي، ولا يستغل ضعيف بسبب فقدانه في زمن ما، لسيادته على ثرواته وموارده، ولا يسرق مال الجباية والضرائب من المواطنين، لصنع الترسانات العسكرية، وتأليف الحروب، وكتابة أناشيد المدائح بالجيوش المظفرة!

كم كان المنظر مبشراً بمستقبل وردي: المواطنون يلغون تقسيم العالم

إلى قسمين. يتحدون في الشوارع إذ تتوحد ألسنتهم. هنا، لا يعود العالم عالمين: عالم الخير عالم الشر. عالم صناعي وعالم متخلف، عالم الشمال وعالم الجنوب، عالم أول وعالم ثالث، عالم مسيحي وعالم إسلامي. عالم إسلامي وعالم هندوسي، عالم متخم وعالم جائع، عالم ٢٠٪ من الأثرياء و٨٠٪ من الثروة، وعالم ٢٠٪ من الثروة و٨٠٪ من المعدمين، عالم المنتصرين وعالم المهزومين، عالم الأقوياء وعالم الضعفاء.

هل هذه هي بشارة البشر أم بشارة الله؟
﴿وقل اعملوا...﴾... و﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

وفوجئوا بأن الله ليس مسالماً دائماً. هو ضد القتل بلا مواربة. ولكنه مع المقاومين، يطرد اللصوص من الهيكل، يضرب بسوطه الطغاة والفريسيين وسماسرة العنف ومحتكري اللقمة ومحتلي البلاد ومروجي بيع السلاح.

«أرضي أرض إنسان تدعى، وقد جعلتموها أرضاً للمفترسين».
فرك الأطفال عيونهم جيداً فرأوا أنهم على صورته ومثاله، هنا وهناك، ففرحوا كثيراً. ومنذ تلك اللحظة، قرروا أن يساهموا في صياغة عالم أقل بؤساً وأقل فقراً وأقل تمييزاً وأقل شراسة. وقرروا أن يعودوا إلى أوطانهم لتصير أكثر حرية، أكثر عدلاً وأكثر نبلاً وأكثر كرامة.
مساءً: قدّموا عريضة موقّعة إلى الله، التمسوا فيها أن يأذن لهم بالعودة إلى أوطانهم.
ليلاً ناموا وحلموا جميعاً أنهم عادوا.

الحلم الأخير

«لسَّه الأغاني ممكنه»

وفي اليوم السابع عدنا
ولدنا مرة ثانية، وموعودون بأن نولد دائماً.
إننا مصرّون على الإقامة في هذا العالم، ولن نغادره أبداً.

إننا لا نشبه أحداً، ومختلفون كألوان في قوس قزح. نحن لسنا من لون واحد، ولسنا من عرق واحد، ولسنا من دين واحد، ولسنا من وطن واحد. ومع ذلك فإننا متفقون على ما يلي:
سنسمي الورود بأسمائها، ونقول للماء أنت ماء، ولحبة الحنطة أنت رغيفنا، وللحب أنت وليمتنا.
سنسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية، باستعارات مسموحة، ومجازات ضرورية.
سنقول بكل صراحة للسفاح، أنت سفاح. وللقاتل أنت قاتل،

وللمجرم أنت مجرم، وللسارق أنت حرامي، وللجشع أنت فاسق وفاسد.

سنقول للرئيس جورج بوش: العار عليك. وللطاغية صدام حسين: اذهب إلى الجحيم، وإلى الصداديم الصغيرة: التحقوا به. وإلى أسامة بن لادن: أنت الوثن الجاهلي وهُبل البرابرة.

سنقول: هتلر لم يمت بعد، وستالين ما زال حياً، وموسوليني يتجول في الأمكنة الممنوعة.

سنقول: إننا نعرف الطغاة من أفعالهم، وليس من ثيابهم وأزيائهم وربطات عنقهم ولحاهم وعباءاتهم. فالبرابرة المعطرون والأنيقون جداً، أشد فتكاً من جحافل الهمج. والقتل بالسكين والخناجر أقل بربرية من القتل بطائرات الشبح وصواريخ كروز.

سنقول أكثر من ذلك: نحن منحازون إلى الضحايا والضعفاء والفقراء والمعدمين، إلى الأطفال والأمهات والشعوب، ولن تجدونا أبداً في صفوف السلطات المنتشرة، باسم المال والشركات، أو باسم العسكر والقمع، أو تأييداً لعرف، أو انتماءً لمذهب.

نحن لسنا من هذا العالم. إننا مصرون على فضحه بالكامل. وننصحكم بعدم اقتناء القتل وممارسته ضدنا. فنحن لا نموت أبداً. كالماء ننحدر إلى السواقي من ينابيعها، نصل إلى مسافات الارتواء، ونعود مطراً، مطراً مطراً. ويشرب العراق الممتد من بغداد إلى بغداد، بعد دوران الأرض مراراً. سنحتمي بالتراب ونصير عشباً، سنصادق الأرض ونصير شجراً، سندخل في الدقائق ونصير الأزمنة.

سنعود في كل مرة. ومن كل الجهات.

واعلموا أننا كالأفكار لا نموت. ولذلك، نحن ضد الموت، الموت الشائع والمتعارف عليه، الموت الذي يتصدر نشرات أخبار التلفزيون، وصفحات الجرائد، الموت المعمم بكافة الوسائل، والمصنوع بقرارات سياسية وعسكرية ومالية ودينية ومذهبية وعرقية، الموت المقترن بالفقر والجوع والمرض وسوء التغذية، الموت المصاحب بالآلام والدماء والعذابات والتشرد واللجوء والمنافي، الموت البشع الذي يقتحم الغرف من بوابات واسعة، ويشلّع السماء، وينزع الابن عن صدر أمه الجاف، والابنة يبيعها لتشتري بعريها خبزاً يعوّض عارها بلقمة الموت المتجوّل في القارات الخمس، المتدفق أحياناً بأسلوب همجي، وأحياناً بأسلوب النعاس.

سنقول لهؤلاء القتلة: أنتم قتلة. سنقول للمجرمين: أنتم كذلك.
سنقول للمفترسين، أصحاب الشركات العملاقة، أنتم أكثر القتلة فتكاً باسم المال والحضارة.سنقول لكم: إننا نعرفكم، ولو كنتم مختبئين في لجان الدفاع عن حقوق الإنسان، ولو كنتم تتبرعون بالفتات لمحاربة السيدا. أنتم زبانية هذا العالم. أنتم شياطينه.

لا تقترحوا علينا هدوءاً. سنزعجكم. سنظل أحياء، ونقوم بواجب المطاردة لحيتان تعمم المجاعة والمرض. سنفضحكم جميعاً وننزع عنكم ألقابكم الفخمة، ونرمي نياشينكم في القذارة، وننتزع منكم براءات أعطيت لكم زوراً، باسم السلام أو المحبة.

إن هذا العالم يحتاج فقط، إلى قليل من الأخلاق، وكثير من الجرأة، وثمالة من الوضوح.

لذلك سنعود إلى العراق، وننفض عنه تابوته، ونطرد منه هلاكو الأبيض، وسنعود إلى فلسطين، ونطارد تجار المحرقة بسوط يسوع، وسنعود إلى نيويورك ونحمي سماءها ممن فتك باسم الله.

سنغسل هذا الكوكب براحتينا كلما تعب، ونمسح عنه دموعه، سنلتئم مع أصدقائنا الأطفال في العالم، ونمنعهم من الموت المستعجل. لقد فجعنا عندما عرفنا، أن كل سبع دقائق، يموت طفل دون العاشرة، بسبب الجوع أو سوء التغذية أو المرض. أسفنا عندما علمنا أن اللعبة «باربي»، التي يشتريها الأطفال الميسورون، يصنعها أطفال يموتون من الإرهاق والجوع والمرض. «باربي» تقتل أطفالها.

إنها لعبة تكدس المال لأصحابها وتقتل من يرسم شفتيها، ويلبسها فساتينها الأنيقة. إن عدد المعدمين في العالم أكثر من مائتي مليون، وأن عدد الفقراء هم أكثر من ثلث البشرية. ورددنا ما قاله القديس أغوسطينوس: الرغيف مشاع، وحفظنا ما قاله علي بن أبي طالب: ما جاع فقير إلا بما مُتِّع به غني.

سنعجن الخبز بأيدينا ونطعم العالم، فالكرة الأرضية غنية وأم لا حدود لأمومتها: إنما هناك من يسرقها ويقتلها ويصادر خيراتها ويشتهيها وحده دون سواه. كم هو مخجل، أن يكون حجم ثروة عشرين رجلاً في العالم، يتصدرون الشاشات والصحف والمجلات والحفلات الخيرية وجمع التبرعات للفقراء يساوي الدخل القومي لأكثر من أربعين بلداً.

هل هذا عالم أم مجاعة متنقلة؟ هذا عالم أم معتقل؟

عدنا مرة أخرى، وسنعود دائماً، لأن الاستسلام لألوهة المال قبول بالاستبداد الأقصى والعبودية الدائمة. لقد عرفنا ما قاله يسوع، ونؤمن به: لا تعبدوا ربين، الله والمال. فالمال هو المنافس الوحيد للجمال والعدل والخير والسعادة. وهو، إذا استفحل أمره، وكثر اشتهاؤه، بلغ في الجريمة ما بلغه في العراق وفي غيره من مواطئ المجاعات في العالم.

هذا الإله المجرم، هذا الإله القذر، هذا الإله الدموي، هو الحاكم اليوم، ويطلب من البشرية الذبائح والضحايا ويسخر خدمه وأسياده وكهنته لتقديمنا له.

لقد كان ذلك كذلك منذ أزمنة، إنما الإله المسيطر اليوم، بات أكثر ضراوة وفتكاً وسحقاً وتدميراً وسيطرة وعولمة. هو مجرم بفطرة الشهوة المتعاظمة له. وإذا كان صحيحاً، كما تقول ماري أوجيه، أن «المال يولد وعلى خده لطخة دموية خلقية»، فإن رأس المال «يولد وهو ينضح من رأسه حتى قدميه بالدم والوحل من سائر مسام جسده» (ماركس). ولا نبالغ، نحن الأطفال العائدين دائماً، إذا رددنا ما قاله ت.أ. دونينغ، من أن رأس المال لا يطيق انعدام الربح، أو الربح الهزيل، مثله مثل الطبيعة التي كان يقال سابقاً إنها لا تطيق الفراغ، وأن رأس المال ليصير شجاعاً جداً بربح ملائم، فربح ١٠٪ يؤمن استخدامه في كل مكان، وربح ٣٠٪ يجعله على استعداد لأن يدوس بالأقدام سائر القوانين البشرية، وربح ٣٠٠٪ يجعله لا يتردد في ارتكاب أي جرم كان وفي خوض غمار أي خطر، حتى ولو كان خطر تعرض صاحبه للإعدام شنقاً. وإذا كان الصخب والخصام يأتيان بربح، فلسوف يشجِّع كليهما علناً. إن أعمال الاختطاف والنخاسة برهنت بكل بساطة على هذه الأشياء جميعاً.

وازدادت فظاعات المال.
ها هو العالم اليوم، حضارة متفوقة تموت.

الموت ينهشها من كل جانب، والمسامير تلاحق أجسادها بالنعوش، والركام يعيش جنباً إلى جنب مع ناطحات السحاب، والقصور الباذخة، والعيش الفاحش.

إن إله المال، ليس من تمر ليؤكل، بل هو إله من جشع يأكل الجميع. إله يؤلف أعظم تراجيديا: المذبحة الإنسانية الخالدة. الموت الأبدي يومياً. الحروب التي تلفظنا أنفاساً. حرب عالمية أولى. حرب عالمية ثانية. حروب عالمثالثية، تنتشر كالعدوى. حروب بإذن ومن دون إذن، إبادات عرقية ودينية. احتلال بلدان بالإرهاب المنظم. توظيف إله الخير في معارك الشر. حروب حروب حروب. إنها السلعة الأكثر رواجاً وفتكاً وربحاً في التاريخ.

الحرب ضرورية لإنجاب المال. والمال ينام غالباً في سرير الحروب.
نتلو عليكم ما قاله عبد الرحمن الكواكبي: «الاستبداد لو كان رجلاً وأراد أن يحتسب وينتسب لقال: أنا الشر وأبي الظلم وأمي الإساءة، وأخي الغدر وأختي المسكنة، وعمي الضر وخالي الذل، وابني الفقر وابنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة ووطني الخراب، أمّا ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال» (طبائع الاستبداد).

سنصالح الأرض مع سمائها، الله ليس ملكاً لأحد. الله صديق الناس، وقلما هو يقيم مع الملوك والحكام. كل أنبيائه كانوا ضحايا الطغاة. إنه أقام جداراً من أبدية بينه وبين الوحوش المفترسة، وزبانية القوة، ووحوش المال والحروب.

الأرض مدى مفتوح لشبابيك الناس، عندما يأكلون خبزهم بعرق جبينهم، ويمنعون مفترسي العولمة من سحقهم بالديون.

هل يعقل أن يموت جوعاً من يزرع الحنطة، وأن يتعرض لسوء التغذية من يلملم الخضار، وأن يحرم من الدواء، من يداه متعلقتان فقط بنضج الثمار؟

سنلاحق الجريمة والمجرمين بالأرقام:

«كل عام، المجاعة تقتل أكثر مما قتل في الحرب العالمية الثانية، وفوق كرتنا ٨٠٠ مليون كائن بشري كي يعيشوا على مدى عام واحد، يملكون من المال أقل مما ينفق على مناورة عسكرية. الكاردينال سوينز سجل ما رآه: «سبع أمهات من أصل عشرة لن يبلغ اولادهن الخامسة عشرة من العمر. سيموتون من الجوع...». باحث أميركي سجل ما يلي: «لو كنا نطعم فأراً ما يقتات به فقير معدم، لمات الفأر جوعاً». هذا ما يحصل ، إنما، لأن الإنسان معتاد على العذاب، فإن حياته تدوم أكثر. إنه يفقد الإحساس بالألم. ويصح القول: «وصرت إذا أصابتني سهام».

لسنا بلهاء. لن يقنعنا أحد بأن هذا التقدّم البشري المذهل هو نتاج العقول والأموال. هذا سطح العالم. نحن نعرف أن هذا التقدم هو نتاج الفقراء والمعدمين والمقتولين في العالم. إن تراكم المال في جانب، استفحل أمره، بسبب نظام السرقة والطرد والإبادة والتجويع.

هذا العالم يصنعه الضحايا. هذا المظهر الجذاب، تختفي خلفه أبشع

المآسي. الإفقار المستدام، أو حكومة الإفقار الدولية، أو عولمة الفقر، أسس لهذا الظلم المعولم.

ألم يكن أرسطو على حق في السياسة: «هناك نوع من الاقتصاد الذي لا يضع حدوداً لنشاطه، ولا هدفاً يحد مداه، لأن هدفه هو الثروة والتملك». أليس هذا هو تعريف «المافيات» السائدة في العالم.

إننا نظلم المافيات التي تنظّم الجريمة على قياسها، عندما نتناسى المافيات الدولية، التي تنظّم الفساد والجريمة والحروب واغتيال العيش، وإلغاء الفقر عبر إلغاء الفقراء، وتطهير العالم إلا من مصاصي الدماء. وينتمي إلى هذه المافيات الكبرى، رجال ونساء ومنظمّات دول وشركات وقوانين وتشريعات، جعلت من هذا العالم فائق التوحش.

إننا لا نصدق الكبار. الرجال المتبوئون السلطات العليا، يصح عليهم ما جاء في الأمير الصغير لأنطوان دوسانت اكزوبري: «الرجال الكبار يكذبون». ارتقى الكذب إلى مصاف الأنباء والإعلام، حيث باتت مهمتهما الترويج للكذب السياسي والإجرامي، كما تروج لمساحيق التجميل.

هؤلاء المجانين بالقوة، المفترسين للسلطة، المتعطشين للمال، يستحوذون على الحد الأقصى من الحرية: «وأعتقد أن الحرية القصوى، تستولد الطغيان، والاستعباد» (أفلاطون ـ الجمهورية)

لسنا أغبياء، ولسنا متفائلين. إننا نملك تشاؤماً بناءً. لقد رأينا ما في هذا الكوكب، سمعنا أنيناً بشرياً مزمناً. وسنسمع أكثر ولن نستسلم للموت.

إن ضوءاً يولد في كل عتمة. والضوء يصالحنا مع المستقبل. يدلنا بأشعته الشهية إلى بكارة جديدة، فنولد ونولد ونولد حتى يصير العالم مثلنا، فراشاً للضوء، وبكارة للإبداع.

نحن الآن بينكم، وسنردد دائماً، معزوفتنا الجميلة:
ليس من حق أحد أن يكون حراً وحده.
ليس من حق أحد أن يكون سعيداً وحده.
ليس من حق أحد أن يشبع وحده.
ليس من حق أحد أن يظلم أحداً.
ليس من حق أحد أن يسرق أحداً.
ليس من حق أحد أن يسلب أحداً فكره ورأيه وحريته وعيشه.
ليس من حق أحد أن يدعي أنه شعب الله المختار، وأن الشعوب الأخرى، هي للاستهلاك، أو هي إضافات، أو هي «غوييم».
ليس من حق أحد أن يدّعي أنه الصواب، وأن الآخر هو الغلط.
ليس من حق أحد أن يقسم العالم فسطاطين: عالم الخير وعالم الشر. إلى عالم الكفر وعالم الإيمان.
ليس من حق أحد أن يتولى الإمرة ويقول: أنا روما فاتبعوني».

نحن الآن عدنا. وسنعود دائماً لنقول ما يلي:
لا يحق لك أن تقول نعم، عندما يجب أن نقول لا.
قل لا وامش.
قلها بصوت مرتفع، وبصيغة الجموع.
وأحياناً، افعلها. افعل لا، ارفعها عالياً.
ادفع ثمن عصيانك، لأنك إن لم تفعل، فسوف تتساوى مع الطغيان في توليد الإرهاب.
هل هذا حلم إنساني؟

قل: هي شهوة البشرية لتكون أكثر إنسانية.
وقل أيضاً: إن روما المعاصرة، ليست نهاية الكون. وإسرائيل ليست نهاية فلسطين.

نحن الأطفال الذين عدنا، لسنا إلا الأفكار التي تدعونا إلى أن نجلس إلى مائدة هذا العالم ونتفاءل به. لسنا إلا الأحلام التي توقظنا من كسلنا ونهار اتنا وتضعنا في مقام الشمعة. لسنا إلا الريح التي تعرف أين تختبئ العروس الإنسانية التي نشتهي إطلالتها دائماً. لسنا إلا تنفس الأحياء، والأعين المستيقظة، والمواسم المفتوحة الصدر، والدخول إلى الأبواب المحصنة، لسنا إلاّ الأجساد المتلاصقة في نشوة من جنس طافح بالحياة. لسنا غير الفينيق أو العنقاء، وبنا بعض من نبوّة بشرية، تجد العالم امرأة تطارد جمالاً لتسلية العشق.

نحن الأطفال العائدين، لسنا إلا أنتم الموجودين لآلاف السنين الباقية، أنتم الكلام الذي لا يترمل، واللغة التي تتصابى على الأزمنة، وتعتق معانيها ورفضها، لكتابة نص يمسح عن الإنسان ضفائر التعب والعذاب.
نحن الأطفال العائدين، لسنا إلا أنتم، والوقت وقت غناء.

إذاً:
«علِّي صُوتك
علِّي صوتك
بالغنا
لسّه الأغاني ممكنه
ممكنه».

القسم الثاني

ملحق لا بد منه

١

قطار القتل السريع

لما رأى «كولومبو» أغاتا كريستي في بغداد، حك رأسه مفكراً وتساءل: ماذا جاءت تفعل هنا؟ دفعته حشريته ليتوقف عن متابعة التمثيل في مسلسله، فلوى عنقه قليلاً، وخرج من شاشة التلفزيون. استدار قليلاً، وكبس الزر فانطفأ.

أحست أغاتا كريستي بصمت مفاجئ، فالتفتت بسرعة بوليسية، وإذ عرفت أنه كولومبو ابتسمت:

- من أين جئت وكيف وصلت إلى غرفتي؟

حك كولومبو رقبته قليلاً، حنى رأسه يسرة، خطا خطوتين متعرجتين، لوى قامته الضئيلة، فبان معطفه الأبدي، مائلاً إلى اليسار. وتأكد له أنه لم يفهم. صافحها:

- ماذا تفعلين في بغداد؟ هل أنت بصدد رواية بوليسية؟

ألحّت مصافحة:
- قل لي أولاً من أين أتيت وكيف دخلت غرفتي؟

استدار كمن لا يفتش عن شيء.
- كنت أبحث عن مجرم. وكدت أضبطه باعترافه وألقي القبض عليه. وبينما أنا أقوم بذلك ممثلاً دور البوليس، رأيتك في هذه الغرفة. دهشت. هل أنت بصدد جريمة معقدة؟

قالت أغاتا: أنا لا أشك في ذكائك فأنت موهوب، وتلاحق التفاصيل الدقيقة كي تكتشف المجرم، إنما يا عزيزي كولومبو، هذه المرة لن تكون نافعاً بشيء، فالمجرم موجود ومعروف وموصوف.
قال كولومبو: إذا كان الأمر كذلك، فماذا تفعلين إذاً؟
قالت: أبحث عن الجريمة.

نظر كولومبو إلى أغاتا بعين شبه مغلقة، وبؤبؤ لا يتآخى مع شقيقه: لم أفهم. المجرم موجود والجريمة ليست موجودة. أنا تعلمت أنّه لا بد من جريمة أولاً. مجرم بلا جريمة!! هذا غير معقول.

التفتت أغاتا بخبث: أنت ممثل. وأنا مؤلفة. أعلم يا عزيزي أن الجريمة متوافرة. العالم يضخ جرائم، وعددها أكبر من عدد المجرمين المعروفين. لذلك، أنا أعرف المجرم، وأبحث له الآن عن جريمة.

حيرة كولومبو دفعته: أنت لديك مجرم وتبحثين له عن جريمة. فهمت، فهذه المسألة معكوسة. حسناً! إنما كيف عرفت أنه مجرم؟

قالت بتعال: لدي مصادري الموثوقة. انتهى زمن تأليف الجرائم في الكتب. ومهنتك ستنقرض يا كولومبو. انتهى زمن رسم شخصية المجرم وملامحه من خلال تعقب خيوط الجريمة. المجرم يتم تصنيعه وتظهيره وتحميضه بسرعة «الإنترنت». يكفي أن يقول السيد: هذا مجرم، حتى يتم الأمر. نحن نتدبر أمر تدبيج الجريمة.

ألحّ كولومبو: اعذريني، أنا اليوم بطيء الفهم. قولي لي، كيف عرفت أن في بغداد مجرماً أو مجرمين؟

أجابت: لا تقلق، مصادري لا يرقى إليها الشك. زودوني بملف كامل عن المجرم وصورته الشخصية وصورة عائلته وقبيلته ونسله وأتباعه وأرضه ومصانعه ومختبراته إلخ. أملك أدقّ التفاصيل. العالم يا عزيزي ليس أعمى. إنه يرى بالأقمار الاصطناعية التأثيرات في كل مكان. ألم تقرأ جورج أورويل؟

قال كولومبو: بلى، إنما تلك رواية. أنا ما زلت مؤمناً بحاسة الشم والحواس الخمس معاً. فالمجرم ليس صورة وسلالة وتخريفاً فضائياً. إنه جريمة مرتكبة.

قالت: لا تقلق. سنؤلف الجريمة. دعني أبحث عن عقدتها فقط.
حك كولومبو رأسه. راوغ قليلاً. ثم قال: لم تقولي من زوّدك باسم المجرم.

دفعت أغاتا بملف كبير وسألته: هل لديك وقت للقراءة، قراءة أسماء الذين نصّبوه مجرماً؟

بإصبعه السريع، مر على الأسماء فتعرف إليها. فهي أسماء متداولة يومياً في الصحف والشاشات، وتنتقل من محطة إلى أخرى، لتعرف على مدار الساعات اسم المجرم. وفهم أن المجرم ليس فرداً، وزعيماً أو رئيساً أو «العراب». إنما المجرم، جموع غفيرة بعدد شعب ما، وأدرك أن المتهمين، يحتاجون إلى جريمة.

سألته: ما رأيك يا كولومبو؟
قال: لا أؤمن بالأوراق. ترّهات. ادعاءات. حاسة الشم عندي أقوى من الصور الفضائية. لا مجرم من دون جريمة سابقة.

كبس كولومبو زر التلفزيون، فقفز من خلال الشاشة لإكمال المشهد الأخير. شاهدت أغاتا بأي حيلة ذكية دفع كولومبو المتهم، للاعتراف بجريمة القتل التي ارتكبها.

بعد موسيقى «الجينريك»، قرع الباب، ففتحت أغاتا واستقبلت كولومبو، بحفاوة : ما رأيك بأن نعمل معاً. أنت تضبط المجرم بالجرم المشهود، وأنا أنسج الجريمة ليقع فيها.

سألها: هنا؟ في العراق؟ وفي بغداد تحديداً؟
قالت بتأكيد: أنظر يا عزيزي. لست من كوكب آخر. العراق مجرم. بلد خطير. خطير جداً. بلد يرتكب جرائم. جرائم بيولوجية وكيميائية وذرية إلى آخره. ولكننا حتى الآن لم نجد أداة الجريمة. ولم نعثر على بيولوجيا قاتلة، وكيمياء مدمرة، ونووي يفني الجميع. إنما، الأكثرية تتحدث عن ذلك. وعندما تقول واشنطن شيئاً يجب أن نأخذه على محمل الجد. فهي تكذب أحياناً، ولكن، ليس إلى درجة تلبيس بلد ما جريمة أو جرائم فظيعة. لا شك في أن لديها

أدلة كافية، إنما أدلتها ليست للتداول. ثم، ألسنا نحن من عالم غربي. أنا خائفة من هذا البلد على أولادي وأحفادي. ألا تخاف أنت؟

قال وقد بدا عليه إهمال ما سمعه: أنت في غاية الذكاء، وأحياناً في غاية الدهاء، وأنا بطيء الفهم. أسألك للمرة الأخيرة. هل الجريمة ارتكبت أم أنها سترتكب. أم أن الجريمة التي لم يعرف بها أحد، قد فقدت أدواتها البيولوجية الخ.
قالت: الأرجح أن ترتكب في زمن ما.

نفض كولومبو سيجاره المطفأ وقال: سيدتي، الجرائم التي ارتكبت أو سترتكب! هذا جديد في عالم الإجرام، عندي المسألة محسومة: إما أنها ارتكبت أو أنها لم ترتكب.

قالت: هنا مكمن العبقرية والقوة: أن تجد جريمة حتى ولو لم تكن موجودة.
قال: على طريقة المستر برادعي والسيد بليكس والكونت باول و..
سألت: تقصد السيد برادعي والمستر بليكس؟

سيدتي، أنا لم أقصد أحداً. باستثناء أن العراق أخطأ في الإملاء، وضبط متلبساً بالخروج عن الموضوع، عندما دس في ١٣ ألف ورقة عدداً لا يحصى من الحشو. علماً أن المفتشين هنا، لم يكتشفوا بعد حشوة واحدة.

قالت أغاتا: أنت تصدق ما يقال في العلن. أنا أعيش في الأسرار. كل كتاباتي البوليسية أسرار محكمة. من يستطيع أن يصدق أن

كل ركاب «قطار الشرق السريع» الذي كتبته منذ نصف قرن، كانوا جميعهم مشتركين في المقتلة؟

أجاب بسرعة: أنا أكتشف ذلك في مجلس الأمن. إنهم يقودون قطار القتل السريع، ويحشون فيه ما لذ وطاب من فنون الاتهام، بلا أدلة. دعيني أعترف: أنا محترف ولست هاوياً. إنني أحترم عقلي.

ثم جلس كولومبو على أريكة أثرية، وراح يغط في تفكير لا ينام. لما عادت أغاتا بعد ساعات، وجدت كولومبو منكباً على أوراق أعاد ترتيبها، بعدما كانت مبعثرة على طاولة كالحة.

سألته: ماذا قررت وهل ستساعدني في إيجاد الجريمة؟ أجابها: بدأتُ العمل.
فرحت: شكراً. أخيراً. صرت واقعياً. وها أنت صرت من هذا العالم.

قال: سأبدأ على طريقتي. سأبحث عن المجرم.
انفعلتْ: قلت لك إنه موجود. لا تشغل نفسك بالمستحيل.

صمت قليلاً ثم قال: لا أريد أن أمثل دوراً غبياً. لست مأجوراً لأي مخرج. أكره أن أكون من جماعة «جيكل أند هايد».
قالت: من تقصد؟
قال: ليس غيرهما: المستر برادعي والسيد بليكس.
قالت: لا تستخف بهما، إنهما يقومان بعمل فذ. يبحثان عن الإبرة القاتلة في قارة من النفط والعشب والناس. والناس هنا لا يتعاونون أبداً. ينظرون إلينا بعداء وتأنيب.

أشار بيده لها أن تعالي: اسمعي ما قرأت على طاولتك. وجدت هذا البيان. أعرف. ستضحكين مثلي. العرب شاطرون بصياغة البيانات، وكما قيل لي، إنهم أمة خطابية وجغرافيا من كلام وديوان من شعر. إنما، هذه الأوراق مختلفة. إنها بيان غريب. بيان من كلمات غير متصلة. ليس فيها جملة واحدة. كأنها دليلنا السري إلى المجرم الحقيقي. المجرم الذي ليس في رأسك طبعاً.

سحبت أغاتا الأوراق من بين أصابعها المتفهمة، وراحت تلتهم الكلمات بسرعة مهملة، ثم رمتها على الطاولة، فتبعثرت مرة أخرى.

أعاد كولومبو ترتيبها من دون أن يظر إليها وراح يقرأ عليها: «لعل في الإعادة إفادة». اسمعي ما في البيان: «كراهية. مقت. ازدراء. احتقار. غضب. حصار. جوع. قتل. قصف. تدمير. سفك. سحل. دواء. مصل. جرح. موت. موت. موت. حفرة. كفن. تراب. بكاء. نحيب. نشيج. ألم. عذاب. جسد. أجساد. طفل. أطفال. نفط. موت. نفط. حرية. نفط. اللعنة».

قالت: كف عن هذا الهذيان. هذه أوراق وجدتها في زقاق ضيق مليء بالقطط. والقطط لا تكتب. ولا تؤلف جملاً. إنها تموء بكلمات غير مفهومة. وهذه كذلك.

قاطعها: لاحظي يا أغاتا. شمي بعينيكِ ما أشتمّه بأنفي. كل كلمة مكتوبة بخط وبقلم مختلف. أظن أن مجموعة كتبت هذا البيان. ويبدو لي أن كتابتها بدأت منذ عشر سنين. وهي موقعة ومذيلة بكلمة «نحن».

قالت: أرني التوقيع. هذا هذر لا قيمة له، بلا معنى.
قال: بل هي مفاتيح تدل إلى الأبواب التي تختبئ الجريمة الحقيقية خلفها. أنت يا أغاتا تبحثين عن الجريمة، لعلها هنا في هذه الكلمات وهذه الأوراق. «أنا أشك أن تجدوا في العراق جريمة دمار شامل».

قالت: سنفبركها.
قال: ماذا لو كان هناك جريمة حقيقية. جريمة قيد التنفيذ. أو جريمة مكتومة، أو جريمة وقعت ولم تضعي قلمك عليها؟ ماذا لو أن هناك جريمة ستقع غداً إذا فبركت جريمة للمجرم؟

قالت أغاتا: المهم أن تكون الحبكة مقنعة، أن تكون العقدة مبكلة، عندها لن تتفلسف فرنسا، ولن تعوي ألمانيا، ولن تجرؤ روسيا. وسيلف العرب أذنابهم ويجلسون عليها.

رفع كولومبو بعناء، إحدى عينيه، ونظر إليها بهدوء مشين: ستكونين عندها كاتبة رائعة حقاً. وبعض الكتّاب يا عزيزتي مجرمون أيضاً.
فهمت أغاتا أنه يتهمها بالتحضير لجريمة، وأنها غير مهتمة بكتابة رواية عن جريمة، فتركته يخرج من مكتبها، وراح يتجول في شوارع بغداد.

رأى وجوهاً مبهمة، وسمرة مدقعة، ورجالاً بلا خطوات، ونساء بلا نوافذ، وأطفالاً بلا أقدام أو أحذية، وشوارع لمدينة مسرفة في البحث عن تسريحة لموتها.

شد كولومبو من وقع قدميه الرخوتين، وقرر ألا يقع تحت تأثير المحرضات على الضعف الإنساني. يلزم أن يبقى قوياً كي يتسنى له

البحث عن الجريمة الحقيقة، كي ينسج الخيوط التي تقوده إلى المجرم الحقيقي.

امتطى سيارة «البيجو» الشهيرة، ذات الطراز المندثر، واقترح عليها بكلام حاسم أن يقوما بسياحة في العراق من دون المرور بمراكز التفتيش التابعة للأمم المتحدة ومن دون التوقف أمام مراكز السلطة الرسمية.

وفيما هو يقود غزالته العتيقة رأى آباراً تمتد كالسحب، وآباراً تغور في آفاق لا حدود لتضاريسها الجوفية. دهش. عرج على دجلة ثم الفرات، رأى أرضاً قلقة على حبلها الموسمي. ولفته أنه رأى أناساً يشبهون الكلمات التي قرأها عن الغضب والازدراء والقتل والموت والنفط. تأمل أصابعهم فوجدها كأقلام تدلّت منها كلمات حانقة. عرف من «نحن».

هو عرف حرب الخليج الأولى وحرب الخليج الثانية. والحرب، كما درس في الكتب، تعني قتلاً وفقراً ومجاعة وخوفاً ورعباً وانكساراً وأناساً يدفنون أحياء في ملاجئهم. عرف أن القنابل الذكية تصيب الأبرياء في الملاجئ. لكن هذه الجرائم وسواها ليست مدعوة للحضور إلى قاعة المحكمة، فقد حكم عليها منذ أكثر من عشر سنوات، وأنزلت العقوبة الجماعية، على طريقة الإبادة بالتقسيط، على من لم يرتكبها وتبين له أن الضحايا تعرف أعداءها بواسطة جروحها وأغلالها.

كانت الجراح كثيرة والإغلال منتشرة في القدمين والعنق والروح. أصيب بدوار خانق، نفط يتدثر بالتهمة، شعب يتأبط حربه. ونام

كمغشي عليه. عندما آفاق من نومه، كان الراديو يزعق بتهديدات للعراق، ثأراً للجريمة التي لم ترتكب بعد، وتصور الأساطيل تجوب بلاد «العشرا عبيد زغار» العربية، وكأنها ذاهبة للتزود بالوقود إلى الأبد، بعد القبض على الـ...

بينما هو يذرع الأرض ذهاباً وإياباً بعينه المفتوحة، شم رائحة التراب، تحسس لزوجته، فتذكر حفلة تكريمه في واشنطن، وتعرف على رائحة شبيهة برائحة التراب اللزج بين قدميه، عندما تقدم منه الرئيس ليقلّده الميدالية على معطفه الأثري، شم رائحة كمّ الرئيس، كانت رائحة نفط، وللنفط رائحة الدم والدمع. عندها، أدرك كولومبو، أن هناك جريمة ستقع وأن هناك مجرماً لا بد من حرمانه نعمة ارتكاب حربه.

عاد مسرعاً إلى بغداد، ودخل على أغاتا بسرعة: أغاتا أغاتا، «إيفريكا. إيفريكا» وجدتها وجدتها، النفط هو الجريمة. سألته: والمجرم؟

قال: هو نفسه. الولد ابن أبيه، إنه جورج دبليو بوش. ذهلت أغاتا وسألته: من كشف لك مضمون روايتي؟
سألها: أحقاً اكتشفت ذلك أيضاً؟
قالت: لست غبية يا كولومبو، يؤسفني أنني كتبت رواية رديئة جداً جداً، ليس فيها شيء بوليسي، فالأمر معروف ولا يحتاج إلى عبقريتي.
قال: ماذا إذاً؟ أليس علينا اتهام المجرم؟
قالت: لماذا تدعي الغباء يا كولومبو؟ الكل يعرف ذلك. ولكن العالم ليس إنساناً. إنه بندقية.

قال: ماذا إذاً؟ ما العمل؟
قالت: علينا أن نوقف عوضاً عنه، الإمبراطور كاليغولا.
سأل: من؟ لماذا؟ لا أفهم.
قالت: كاليغولا روما، ذاك الذي أقسم أن يمارس الحرية «اليوم وإلى الأبد، ليس لحريتي حدود». الحرية الكاملة، الحرية المنحرفة إلى العدم، إلى القتل النهائي.
قالت: إذاً سأقرأ عليك ما اكتشفته من كتابة عربية، تدل على الجريمة «يا نفطنا... يا عارنا... يا كل شيء ضدنا»
سألها: لمن هذا النص:
قالت: لكاتب سعودي منشق. طرد من المملكة، وبعدها طرد من بيروت ومات منفياً في القاهرة، ويدعى عبد الله القصيمي.

كبس كولومبو زر التلفزيون، دلف إليه، علق معطفه الأثري على الكاميرا. فأغمضت عينيها.

فتحت أغاتا كريستي باب «قطار القتل السريع» وقفزت منه، وما زال القطار مسرعاً إلى الحرب، حيث ينتظر «العشرا عبيد زغار» من العرب، حتفهم المؤجل، بعد بغداد.

٢

كتابة

لا بد من أن طفلاً عراقياً قد كتب ما يلي:

«أنا اليوم أبحث عن صمت لأنام. السماء تفتك بنعاسنا. الطائرات تسفك ليلنا. الصواريخ الذكية تمزق أحلامنا النادرة. قليلاً من الصمت لأنام. لأرتب فراشي».

لا بد من أن طفلاً عراقياً آخر قرأ ما يلي:

«كان يبحث عن صمت لينام، ليرتب فراشه، ليريح عينيه من البكاء، ليبتسم لفراشات الأحلام. عندما حاول أن ينهض من فراشه، كان فمه ملتحفاً قبضة من التراب، ورأسه تحت حافة الباب، وجسده يتعثر بالدماء».

لا بد من أن طفلاً آخر ودعه كما يلي:

«كان يجب أن تسهر من صباح إلى صباح .تمسح عن تعبك جوع الغفوة. تدرب جفونك على الوقوف، وتمرن فمك على طعام نادر أو مفقود. لكنك غفوت قليلاً بين نوبتي عذاب فاغتالتك الطائرات. حسناً فعلت يا طفلاً، لأنك لن ترى وجه قرصان السماء. لن ترى بعد اليوم السفاح الأنيق، الذي يهوى المذابح السخية بالأطفال. نم أيها البغدادي الصغير. هذا العالم لا يستحق براءتك.
اتركنا. سنكون أقحوانة قبرك، وشهوداً على يد القرصان؟؟ ونقسم لك: سنقطعها».

لا بد من أن أطفالاً عراقيين قد كتبوا ما يلي:
«أيها الناصعون ببراءة ونقاء.
أيتها الأنامل الحنون، أيتها العيون الملوّنة بالفرح.
أيها الصبية المرحون، أيتها الثياب الأنيقة الملتصقة بأجسادهم الطاهرة، يا أطفال العالم تمتعوا بأيامكم. ناموا بنعاسكم. احلموا حتى الثمالة، واختالوا في كل الأمكنة. استعجلوا، فقد يختار القرصان الأميركي لياليكم، ويغزو نهاراتكم، ويفرغ في عيونكم موتاً أصفر.
لا وقت لديكم لتحزنوا علينا. اصرفوا كل ثانية من عمركم في نشوة البقاء. إننا نخاف عليكم خروج الذئب من الحكاية، ويأكل ليلى وأخواتها وإخوانها، كما فعل في فلسطين وكما يرتكب اليوم في العراق».

لا بد أن أطفالاً أميركيين صغاراً قد كتبوا ما يلي:
«أيها السيد الرئيس
أنت لست منا ونحن لسنا منك.

إن رائحتك من نفط، ويديك من رصاص، وعينيك من أسنان، ولسانك من قاموس الكذب، وثيابك من جلد أناس كانوا أطفالاً لم يناموا جيداً طفولتهم، لأنك أيقظت قبورهم في بغداد وفلسطين وأراضٍ أخرى».

أيها السيد الرئيس
اغرب عن وجهنا. كن مهذباً واجلس في مكانك اللائق. في عنوان إقامتك الأبدي، مع نيرون وهتلر وستالين وشارون.
ادخل هذا المتحف المتوحش.
دعنا وحدنا، لنتلو صلاة لأطفال مثلنا. لنتبرك بجراحهم، ولنقدس آلامهم ولنحفظ عذاباتهم عن ظهر قلب، كي لا تعود مرة أخرى إلى قتل الأطفال. أيها الغول الرئيس».
لا بد من أن يأتي يوم ناصع.
لا بد من «خضر» أو «جاورجيوس» يصرع التنين. ويكون الخضر على هيئة شعوب، أو على صورة أطفال. وكم سيكون العالم يومها جميلاً ورائعاً ومقدساً؟.

٣

كيف تكون أميركياً

حاولت أن أكون أميركياً، ولكن كان عليّ أن أجد تبريراً معقولاً لتأييد قصف أميركا لأفقر دولة في العالم.

كدت أنجح في إقناع نفسي، ولكن كان عليّ أيضاً، أن أنسى أسماء الطائرات التي استعملتها «إسرائيل» عندما اجتاحت بيروت، وأن أمحو عناوين فبارك الأسلحة الأميركية، وأن أسهو عن عدد الشهداء والجرحى.

كدت أنجح في اغتيال ذاكرتي، ولكن كان عليّ أيضاً أن أحمّل العراق وأطفاله وشعبه مسؤولية مأساة العشر سنوات، وأن أبرئ يدي أميركا من مقصلة شعب.

كدت أفعل ذلك، ولكن كان علي أن أتقن كل ما يقولونه عن

السلام والحرية والديمقراطية والازدهار والتقدّم وحقوق الإنسان والبنك الدولي ونظام العولمة.

كدت أصدق كل ذلك، ولكن كان عليّ أن أعتقد أنها المؤهلة وحدها لما أوتيت من قوة وتقنية وأموال وأسواق وعظمة وناطحات سحاب وبوارج حربية وقدرة على التدخل بكل شاردة سياسية وواردة اقتصادية. أنها المؤهلة لقيادة العالم، وأن الوقوف في جانبها لترتيب أحوال هذه القارات الخمس ضروري.

كدت أن أوافق على ذلك، ولكن كان عليّ أن لا أصدق الذين يكرهون أميركا وأن أعتبر ذلك حسداً من نظامها الناجح، وأن أصبح مبشراً بالطريق الأميركية وفضائل العولمة والأمل بفقر أقل وثروة موزعة بالعدل.

كدت أصدق ذلك، ولكن كان عليّ أن أعترف بأن العالم لولا أميركا لعاث فيه «الإرهاب» ولضاعت حقوق الشعوب ولأصبح العالم محكوماً بشريعة الغاب ولوقع الجميع في حروب متناسلة، لا يتوقف إنجاب العنف فيها عند حد.

كدت أعترف بذلك، ولكن كان عليّ أن أغمض عيني عن خطاياها، وأسامحها على جرائمها، وأن أحبها كما يحب الابن الصالح والده السيئ المصاب بآفات النصب والاحتيال والدعارة والأفيون والفساد... وكان عليّ أن أحبها لأصير أميركياً، ولكن...

كدت أحب أميركا وكدت أصير أميركياً برغم كل ما تأتيه

حكوماتها. كدت أبرر لها وأبيّض لها سجلها وأتلوه بحروف ذهبية وأبوئها مركزاً مرموقاً أستحق أن أفاخر بانتمائي إليها.

كدت أن أرتكب كل السيئات والعثرات والغباء والتغاضي والمذلة لأصير أميركياً، ولكن...

حدث أنني لبناني، وحدث أنني فلسطيني أكثر، وحدث أنني عربي جداً، وأتمتع بإنسانية فاضلة، وهذه ليست شارات أستطيع انتزاعها، بل أني، لهذه الأعراض الأميركية المستفحلة ضحية نموذجية، وتاريخي يتألف من كوني ضحية أميركية، بيد إسرائيلية، وجلاد إسرائيلي وقاتل محترف بدم صهيوني بارد.

لا ذنب لي.
ذنبي الوحيد الذي عوتبت قرناً عليه، أنني أريد بيتي الذي سرقوه مني، وأن لا يقتلوا أولادي كما قتلوا أبي، وأن يرفعوا أقدامهم عن عنقي، وأن ينزعوا أظافرهم من لحمي، وأن يسحبوا أنيابهم عن بلدي وأن أصير إنساناً يستطيع أن يتمشى في بلده ويسهر على الشرفة ويفكر بالفرح ويبرمج أيامه لغير الأحزان والغضب والجراح والموت.
لا ذنب لي وأنا معاقب أميركياً.

ذنبي أنني، ذنبنا أننا، نرفض التخلي عن قوتنا النظيفة وتطلعاتنا الناصعة لإنشاء وطن كغيرنا من أبناء هذه القارات الخمس.

ذنبي، ذنبنا، أننا لا نريد أن نكون من صنف الضفادع العربية التي تقلق راحتنا بعويلها الدائم على الحقوق التي تخلت عنها وتركتها

في المستنقع الدولي تحت رحمة الاعتداء والاغتصاب.
ذنبنا، أننا مقاومة ولسنا إرهاباً.

ولذلك من المستحيل أن نكون أميركيين، ولو بالشبهة. كما نظن أنه من المستحيل المنظور ألا تكون أميركياً إسرائيلياً، أمناً واقتصاداً وقصفاً وعنفاً وإرهاباً وهلم جراً.

كيف أكون أميركياً؟
مستحيل.
أحياناً، أجدني أميركياً مضطهداً في أميركا، فهي تظلم هناك وهنا.

لو كنت أميركياً
إنني أحب هذا العالم، فلماذا لم يعد يُطاق؟
من يُفسّر لي كيف سيتحول العالم إلى مخفر، وكيف يصير الشرطي الرخيص صديقي، ومن سيدسّ حارس المبنى في ثنايا روحي، ليفتش فيها عن ملامحي؟

إنني أحب هذا الكوكب الرائع، فمن ذا يقايض حياتي بالخوف عليها، ويوزّع عليّ ورقة يانصيب أخسر فيها كل شيء، وأقامر بدمي ليجعل منه نبيذ الموت؟

إنني أحب هذه الدنيا المزدانة بناسِها، هل تشمّون رائحة الأطفال؟ ألا يجلسون في حرجكم دائماً، وتقضمون من وجناتهم قبلاً حتى ثمالة الفرح؟ ألا تحبون النساء؟ كم امرأة تشرق كل يوم؟ كم أنثى تستيقظ على نهم الجمال؟ كم عاشقة أرهقها الشوق إلى خلوة؟ كم جسداً يحدّث جسداً، ويسامر باللمس روح اللذة؟

إنني أحبها، هذه المتأنقة في اكتمال ألفيتها الثانية، فمن خطفها مني، وساقني إلى مثواها الباقي بيننا؟
وأعجب من راغب في ازدياد؟

٤

لو كنت أميركياً

I

إنني أحب هذا العالم... فلماذا لم يعد يُطاق؟
من يُفسر لي كيف سيتحول العالم إلى مخفر، وكيف يصير الشرطي الرخيص صديقي، ومن سيدس حارس المبنى في ثنايا روحي، ليفتش فيها عن ملامحي؟

إنني أحب هذا الكوكب الرائع... فمن ذا يقايض حياتي بالخوف عليها، ويوزّع عليّ ورقة يانصيب أخسر فيها كل شيء، وأقامر بدمي ليجعل منه نبيذ الموت؟

إنني أحب هذه الدنيا المزدانة بناسها. هل تشمون رائحة الأطفال؟ ألا يجلسون في حرجكم دائماً، وتقضمون من وجناتهم قبلاً حتى

ثمالة الفرح؟ ألا تحبون النساء؟ كم امرأة تشرق كل يوم؟ كم انثى تستيقظ على نهم الجمال؟ كم عاشقة أرهقها الشوق إلى خلوة؟ كم جسداً يحدّث جسداً، ويسامر باللمس روح اللذة؟

إنني أحبها، هذه المتأنقة في اكتمال ألفيتها الثانية، فمن خطفها مني، وساقني إلى مثواها الباقي بيننا... واعجب من راغب في ازدياد؟

II

لو كنت أميركياً بسيطاً، أميركياً عادياً، أعيش بطريقة لائقة، وأحتسي أيامي بأسلوب مرفّه، وأذهب إلى عملي صباحاً، وأقود سيارتي عائداً إلى منزلي، أو منزل صديقتي، وأشتري «الهامبرغر»، وأعاقر السينما، وأداوم على أفلام هوليوود، وأقرأ عن أول إنسان داس القمر بقدمه... لو كنت أميركياً، لخرجت اليوم من شرفتي لأسألكم جميعاً، لماذا تكرهوننا؟ أنتم أيها المقيمون فوق هذا الكوكب المفتون بدورانه ورقصه الدائم حول نفسه وحول الآلهة. لماذا حوّلتم الفضاء إلى تابوت، والسماء إلى مقبرة؟

أنتم، أيها الذين تملأون العالم غضباً، وترفعون قبضاتكم كأنها صلاة منكرة، وتسفكون أيامنا في عتمة كراهيتكم، لماذا اخترتم حريتنا لتغتالوها؟

أنتم، أيها الممسكون بفقركم حجة ضدنا، وعجزكم تهمة لنا، لماذا ترغبون أن تكونوا مثلنا، أو أقل منا كثيراً، ثم تحطون رحالكم فوق حطامنا؟

أيها الآخرون في هذا العالم، لماذا أنتم أعداؤنا؟

III

لست أميركياً، لا بالوراثة ولا بالثقافة ولا بالتقليد ولا بالشهوة، ولكنني أشعر أنني معني بالألم الإنساني، وأن سيزيف بات صديقنا جميعاً.

أشعر أن الموت الفاخر، الذي كان يتمتع به أهل الغرب، صار يشبه موتنا، وأحس بأن الكارثة التي حلّت بأميركا، قذفتني إلى حدود الفزع الهائل على الإنسان، والرعب على هذا الكوكب.

أي ألم شاهق في العمر هو هذا؟
أي جرح يبطن حقداً أعمى، وحرباً بلا رثاء؟
أي عالم هو هذا العالم؟ ماذا صنعت يداك يا قرد هذا الكوكب الرائع؟

أشعر أنني أستطيع أن أمسك يد صديقي الأميركي وأواسيه في معاناته، وأسدّ رمقي بجواب متواضع عن أسئلته المشروعة.

يا صديقي الجديد، كنت أود أن تبقى بريئاً من مصائبنا وفقرنا وأمراضنا وحقوقنا المهضومة. كنت أحب أن تبقى مواطناً من إنتاج هوليوود. يظلّلك دولار أخضر الملامس والأحلام. وأدين ما دفعته من دمائك وعيشك وخوفك. لكنني، وأنا أصغي إلى أسئلتك أود أن تكتب لي رسالة، وتقرأها علي بالهاتف لأن لا مكان إقامة عندي. ففوق هذه الكرة الجميلة، لا وطن لي، ولا بيت، وأقيم بصفة لاجئ، في أصقاع باردة، وإن كان لي وطن، فهو مثقوب، ويشبه زنزانة ضيقة.

يا صديقي: آمل أن تسأل عني يوماً ما. فأنا موجود مثلك، فوق هذا

الكوكب، إنما في الطوابق السفلية، أو تحت الأرض. وأحياناً تحت التراب. فأسأل لماذا؟

٥

يا للعار!

ثمة فقدان لعنصر المفاجأة
أميركا العظمى، ترتكب السياسات البربرية، ككل الإمبراطوريات الأحادية، وتتطاول على الشعوب، ولا تكترث بالمواثيق، وتهزأ من حلفائها، وتتصرف مع المؤسسات الدولية كأنها خدم في مزارعها الدولية، وترتئي أن تصفّ «أعداءها» الذين تصطفيهم على جدران العراء الأخلاقي، وتعاقبهم بالقصف والإبادة.

أميركا العظمى لم تعد تفاجئ أحداً أبداً. «زعيمة العالم الحر» حرة في أن تتقمص من تريد، تارة هولاكو، وتارة تيمورلنك، وأحياناً موسوليني وغالباً هتلر، ودائماً شارون.

أميركا العظمى، هي أميركا نفسها، التي سجّلت الرقم القياسي في

خوض الحروب، وتدمير الدول (هيروشيما، فيتنام، نيكاراغوا، باناما، غواتيمالا، التشيلي، كوريا، أفغانستان، العراق، يوغوسلافيا)، تستعد لتدمير العراق مرة ثانية، بعدما أرخت العنان لسفاح صبرا وشاتيلا أن يحول الضفة الغربية إلى صبرا يومية وشاتيلا على مدار الساعة.

أميركا العظمى ذاتها، «الراعية لجهود السلام»، لم ترتكب، منذ الحرب العالمية الثانية، إلا الحروب، وهي تستعد لارتكاب المزيد، وتطالب جميع الدول، وجميع الشعوب، أن تقبل بحق الإمرة الأميركية، لفرق الإعدام التابعة لها، في أنحاء العالم.

ثمة فقدان لعنصر الدهشة. لقد سقطت الأقنعة كلها. فأميركا ضد الجميع، وتريد من الجميع، الحلفاء والأصدقاء والأعداء، أن ينصّبوها إلهاً ديّاناً، يقتات من أضاحي الشعوب شعباً بعد شعب، ودولة بعد دولة.

فمن يصدق في العالم، أن أميركا بلد الحريات؟ إنه أمر مثير لضحكة سمجة. من يعترف بأن أميركا حامية لحقوق الإنسان؟ إنه أمر يدعو الإنسان إلى العودة إلى جدوده من فصيلة السعادين وعائلة القرود.

إنها تهمة قذرة، فعلى الأحذية الأميركية، وعلى أقفية جنودها، كل ما سطرته الشرائع. فهي صاحبة الابتكار «الحق للقوة فقط»، وهي ككل الإمبراطوريات في العالم، تدمّر حضارات الآخرين وتضربهم في عقر دارهم، وتخرب وجودهم، ثم تطلق عليهم لقب البرابرة والمتخلفين.

وهي ليست مهتمة بمن يكرهها، وتعرف لماذا يكرهونها، والرئيس

كارتر، كتب في الـ «نيويورك تايمز» في العام ١٩٩٢ عن أسباب هذه الكراهية: «يكفي أن تزور لبنان، سوريا والأردن، لتلمس مدى الكراهية لأميركا، لقد قمنا بتدمير القرى حول بيروت في العام ١٩٨٢. وقتلنا عدداً من الفلاحين والشيوخ والنساء، وقصفنا مناطق آهلة». «إنهم يعرفون ما فعلت أيديهم وما سفكت من دماء، وهم معجبون بها جداً، ولا يخجلون من ذلك، لأنهم يسمون ذلك، دفاعاً عن الحضارة ضد البربرية، ودفاعاً عن الديموقراطية ضد الطغيان، ودفاعاً عن الحرية ضد الدكتاتوريات، ودفاعاً عن القيم الإنسانية ضد قوى الظلام والشر.

ولا تهتم أميركا أبداً بما ينشر عنها لأنها قادرة على تزويره. ففي تقرير لمنظمة العفو الدولية في العام ١٩٩٦ جاء ما يلي: «مع طلوع كل شمس، فإن امرأة أو طفلاً أو عجوزاً يطرد من منزله أو يعتقل أو يقتل أو ينفى أو يهجر من خلال أعمال تقوم بها مؤسسات وحكومات ترعاها الولايات المتحدة الأميركية». إن هؤلاء القتلى يحظون دائماً بالنسيان الأميركي المتعمد.

ثمة فقدان لعنصر الدهشة.
إلا أن ما يدهشني حقاً، هو هذا العالم العربي، الذي يعيش مواطنوه وحكامه كأنهم «سياح» عالم لم يعد يملك حتى القدرة على ممارسة نقيق الضفادع.
ثمة ما يثير الدهشة.

إنهم يظنون أنفسهم أنهم في سفينة نوح الأميركية، وأن النجاة مكتوبة لهم.
حتى شعار «يا للعار»، لم يعد يهز فيهم أنملاً.

٦

عذراً وشكراً

أشعر بالخجل.
رأيتهم بعين لم أصدقها. سمعتهم بأذن لم أتعرف إلى صوتها. تحسست حضورهم القياسي من دون أن أصافح أحدهم. رأيتهم وتعرفت إليهم، لأنهم لا يشبهونني أبداً.

رأيتهم: احتلوا ساحات المدن وشوارعها وساحاتها، أقاموا جسراً من الأجساد والقبضات يربط عواصم العالم ومدنه.

سمعتهم يقولون: لا لزعمائهم. يتحدّون رؤساءهم. يسفّهونهم بصوت طليق. يتجرأون عل قول الممنوع. يرسمون صورة الطاغوت، ويحطمون صنم الإمبراطور العالمي.

تجرأوا: لم يحفلوا بالطقس المثلج والعاصف. ما خافوا على أطفالهم من البرد فحملوهم معهم، ولا خافوا من قر شباط، عجائز ونساء ومن كل الأعمار.

أشعر بالخجل.
سمعتهم: كل اللغات التي تحدثوا بها كانت غربية. كانوا ضد الحرب على العراق، وضد الدماء مقابل النفط، وضد الجبروت الأميركي وما كانوا خائنين.

احتفلوا: غنّوا لعالم جديد، صرحوا برفض جازم، ووقعوا على عنوان إقامتهم الدائم: «نحن هنا»... في الشارع الممتد من أوجاع حروب الماضي، إلى أمل بعدالة وسلام وبشرية أكثر إنسانية.

عددتهم: ملايين أمام ملايين، كأنهم الزحف الريادي المقدس، ليشهدوا على الظلم الأميركي، وليمنعوا جلجلة جديدة، ويصلب فيها العرب عن بكرة أبيهم.

أشعر بالخجل.
ظننتهم. كيف تجرأت على الشبهة؟ كنت قد وضعتهم جميعاً في سلة واحدة. واتهمتهم بالتواطؤ والخذلان والعمى.

فاجأوني؟ كنت أنتظر التظاهر من الشرق، فجاؤوني من الغرب، فيما كان القطب المتجمد الشمالي يزحل من مكانه، ليقيم في القارة العربية.

أشعر بالخجل والفضيحة. وأعترف بأنني مذنب، وعليّ واجب

الاعتذار العلني، وبصوت صاخب جداً، من جميع هؤلاء الأجانب الذين ابتكروا صيغة رائعة للوقوف إلى جانبي، أنا القاعد في مكاني، أبحث عن الدفء والكلام الذي يفيض عجزاً وتبريراً.

أدين لهم بشكر مضاعف، أولاً، لأنهم اعتنقوني، رغم ضعفي وهزالي وكسلي. وثانياً، لأنهم عرّفوني أن الحرية وحدها هي حبل الصرة الإنساني الذي يربطنا إلى رحم الإنسانية.

أدين لهم لأنني تعلمت أن الأنظمة الدكتاتورية تنجب عبيداً يطربون إلى رنين قيودهم، فيرقصون على جراحهم ويسكرون من نشوة الألم.

أدين لهم لأنني عندما سأقيد سجل نفوسي وإقامتي في الشارع العربي، سأرفض أن أحمل صورة رئيس أو زعيم أو هذه الطغمة المالكة سعيدة منذ نصف قرن. ولسوف أصر على أن أكتب على قميصي شعاراتي التي تشبهني، والتي لا تشبه حكامي الأبديين المقيمين فوق صدري منذ ولادتي.

العالم ليس شرقاً وغرباً دائماً. ليس شمالاً وجنوباً دائماً. ليس عرباً وأجانب دائماً. ليس إسلاماً وصليبيين أبداً. بل هو عالم الناس الذين يعرفون بحسهم ووعيهم العادي أو الاستثنائي، أن الظلم، أي ظلم، بما فيه ظلم ذوي القربى مدان ويحتاج دائماً إلى قبضات صارمة تلكمه على وجهه.
فأميركا ليست وحدها في هذا العالم.

٧

ويهددوننا بالديموقراطية

يهددوننا بقرضاي عربي!
إنّه لأمر مثير للسخرية حتى الثمالة.
ليس عندنا قرضاي واحد، بل أكثر من ذلك بكثير.
عندنا من هذه البضاعة السياسية ما يكفي بلاداً بأسرها.

عندنا منهم للتصدير مع شهادة المنشأ، موقعة ومصدق عليها من أعلى وأعتى المراجع الأميركية، مع سنوات وعقود من الخبرة والتجارب، بأجسادنا وأحلامنا وغذائنا وثرواتنا وثقافتنا ومستقبلنا.
ويهددوننا بقرضاي جديد!

عندنا ما يكفينا ويفيض عنا. وهم منتشرون كأجمل الأوبئة، من المحيط إلى الخليج، وهم يتناسلون في المخدع الأميركي ويتربون على

تهذيبنا وتشذيبنا وفق قواعد السلوك الأميركي، وفضائل السوق العالمية.

عندنا «قرضايات» للسلطة، وآخرون للاقتصاد والمال، وهم خريجو جامعات أميركية أيضاً. عندنا «قرضايات» للثقافة والتعليم، وقرضايات للتجارات والبورصة والعقارات، وقرضايات لتعميم السجون والأمية والفقر وفق مواصفات صندوق النقد الدولي ومنظمة السرقة العالمية المسماة تجارة عالمية.

ويبشروننا بالديموقراطية.
إنه لأمر مثير للسخرية من أنفسنا حتى الجنون.
عندنا من هذه الديموقراطية نماذج لا يرقى إليها الشك. الديموقراطية المعمّمة في جمهوريات الموز في أميركا اللاتينية في الخمسينيات والستينيات. ديموقراطية القراصنة المتحدرة من سلالات وعائلات متقنة التصنيع، وفق مقاييس الطاعة لروما الجديدة في واشنطن.
إنهم يهددوننا بديموقراطية قيل فيها إن لها أنياباً أشد فتكاً من الديكتاتورية.

ديموقراطية من ورق، حكام من دون شعوب، وسلطة تملك الناقة والجمل والنفط والثروة. إنما الرسن بيد... كـ«الطِّول المرخى» على ما قاله طرفه بن العبد.
أميركا هي أميركا.

إن لها وجهاً حقيقياً، هو هذا الوجه الذي تلبسه اليوم. وجه الحرب مهما كلّف الثمن، وأياً كان رأي العالم فيها، وأياً كان حجم الدمار والعذاب الذي تعممه.

إن لها سياسة واحدة. هي سياسة القتل والقمع والنفوذ والسرقة والنهب والاحتلال. سياسة ابتداع الأعداء وانتقائهم، واصطفاء الذنوب والخطايا لهم، ومحاكمتهم وإطلاق الرصاص عليهم وضميرها في غاية الراحة، لأنها تقوم بواجب تطهير الأرض من الإرادات المناوئة لمصالحها وهيمنتها.

أميركا ليست دولة مجنونة، وليس بها مس عصابي. هي كما تظهر اليوم سافرة، ولا يجدينا البحث عن الأسرار والخطط التي تخبئها. فلا سياسة سرية لأميركا، كل أسرارها السياسية معلنة: حروب حيث يقتضي الأمر.

إذا كان ذلك كذلك، فماذا تعني هذه الحشمة السياسية العربية؟ وماذا يعني هذا التعفف عن مجرد الحديث؟ وماذا تعني هذه الشعوب المسطحة التي فاق صبرها الميت كل الحدود؟

لعل الكارثة إذا زارتهم مرة أخرى وقعدت على أبوابهم، تذكرهم بفلسطين والجولان والقدس. ولعلّ الكارثة المحتملة إذا حصلت، تخرجهم من الخرس، وتبعث فيهم جرأة القبض على قرضايات العرب السابقين والمقيمين والقادمين.
إنما «ما نيل المطالب بالتمني».

٨

الحق على الشهداء

لماذا ولدتم في فلسطين؟ كان يلزم أن تكونوا بلا مسقط رأس، أو أن تكونوا أناساً بالمجاز.

لماذا كبرتم في فلسطين؟ العالم يشيعكم وأنتم أطفال، ويرى أنكم أعداد زائدة على الوجود.

الحق عليكم، فالتهمة أنكم فلسطينيون. وهذا أمر لا يغتفر. والفداحة! أحلامكم، إذ تجرأتم على حرية تطلبون ودها، وعلى هواء تصافحونه، وعلى أرض تروونها بعروقكم، وعلى وطن أصغر من خريطة دمائكم.

الحق عليكم لأنكم موجودون، فلولا وجودكم الإضافي، لما تبرعت

«إسرائيل» بقتلكم وتحريركم من بؤسكم المزمن، وأضغاث سياسات ترى أن العيش ممكن على وقع الحجر.

أنت، أيها الفلسطيني متهم بالولادة والعبادة والسيادة. متهم أكثر بالشهادة. فما أفظع ما ترتكبه عندما تستشهد!

تُشغل العالم بك، ويضطر مجلس الأمن للانعقاد لإنقاذ جنس قريب من البشر من الانقراض عبر حملات التطهير الإسرائيلية، ثم تملأون الشاشات بالصور الدامية، وجنين الجاثية على شهدائها، بانتظار من يسألها فقط: كيف قتِلتِ أيتها البائسة بين كواسر المدنية الزاحفة بأنيابها؟

ليس بوسع العالم أن يبقى مشغولاً إلى الأبد بفلسطين. وليس ملزماً بإرسال لجان للتدقيق بعدد الشهداء، الذين ارتكبوا جريمة الموت وقوفاً، والموت عصياناً، البقاء في الذاكرة كالمآذن التي آخت السماء من المهد إلى المهد.

أيها الفلسطيني، عليك أن تكتفي بما كتب لك في سطور الدول الكبرى. وأن «تبوس» اليد التي لا تستطيع كسرها، وتقفل عينيك أمام المخرز. فلا يجوز انتهاك حرمة «إسرائيل» وإظهارها ككائن وحشي، فهذا غير لائق بانتمائها إلى العالم الحر، بسبب ما تستحقه أنت أيها الموجود المتوحش والهمجي.

لا، سينظر العالم في قضية تبرئة «إسرائيل»، ويغسل يديها من مآثر المجازر. فالتطهير العرقي هنا، ليس جريمة، بينما هو في كل مكان آخر، جريمة الجرائم، واعتمار الكبائر.

لا، ليس من اللائق فضح «إسرائيل» من أجلك. فأنت الحثالة، و«إسرائيل»، هي الثمالة الحضارية.

حبذا لو يقتنع الشهداء بأن هذا العالم يستحق مسحة من الإنسانية، حتى ينالوا حقهم بالتسمية، وإلا فإنهم سيظلون بعد صعودهم إلى الرتبة الأعلى، متهمين بالقتل، ويستحقون الملاحقة في الملأ الأدنى.

أيها العالم، كم أنت جبان ونذل وقذر، عندما تصبح إصبع «إسرائيل»، هي الآمر والناهي والمرشد والمربي، عندما يصبح العالم ذيلاً لوصايا «إسرائيل».

أيها العالم، إنك تستحق جنوناً عظيماً، كي تُحتمل. فمتى يكون المقتول متهماً، والقاتل متوّجاً بالمثالية والسلام؟ يكون كذلك عندما تصير القيم السياسية العليا، مستوحاة من عدد المجازر.

شارون هو رجل السلام، ولم لا؟ فالعالم يصفق لمآثره. و«إسرائيل» بطلة الحرية، ولم لا؟ فالعرب مطمئنون إلى أن موتهم القادم سيكون أسهل من موتهم الذي بصموه منذ ولادتهم.

يا للعار. إن هذا العالم، يعيش في قبعة الجندي الإسرائيلي.
يا للعار. هل نحن ننتمي إلى الجنس البشري؟ آمل أن يطرح هذا السؤال على جنكيز خان أو على هولاكو...
فقولهما أصدق إنباءً من العرب.

٩

ما فوق الغضب

من يكتشف لنا لغة أخرى؟
من يجهش لنا مفردات جديدة؟
من يعطينا موهبة الجملة التي لم تُكتب بعد؟

يحتاج هذا العالم إلى ما فوق الغضب لأنه سافل ورخيص، وأكثر من طاقتنا على الاحتمال؟

تحتاج هذه الدول الطاعنة في الظلم إلى ممارستنا للحد الأقصى من العصيان. تحتاج هذه الأمم الساكتة على الظلم إلى طلقات حية لإعادة الوجدان إلى سحنتها الجرداء. تحتاج هذه الأمم المظلومة والمسحوقة والصامتة إلى ضجيج يولد في الشارع ويتحول إعصاراً لا يتوب عن بلوغ النهايات.

من يكتشف لنا جملة ملتوية الأخلاق كي نصف هذا العالم الملعون؟ هذه الأمم الزانية؟ هذه الدول المطايا؟ هذه المنظمات الإنسانية الغائبة عن الإحساس البشري؟

هذه هي المرة المئة التي تذبح فيها فلسطين، هذه هي المرة الألف التي يتناوب على تخضيبها بالموت، جنود من حقد، وسياسات من حقد، وحقد لا موارية فيه، مصنوع فقط ليكون العقاب المزمن لشعب الأزمنة كلها، والذي لم يجد لزمانه مكاناً آمناً يمارس فيه وقته العادي.

من يجترح لغة سافلة لنخاطب بها واشنطن؟
فهي التي اختارتنا أعداءها. وعن سابق تصور وتصميم وجنون، قادت جحافلها بالوكالة لتلقين الفلسطيني الاستسلام...
وكم هو مستحيل!

لا تصلح كل اللغة العربية لوصف الصلف الأميركي. لا تنتج إلا لعنة أو شتيمة في معلقات الظلم الأميركي ومعلقات الوحشية الإسرائيلية.

علينا أن نكف عن استعمال هذه اللغة العاقلة والمهذبة. علينا أن نخترع لغة وحيدة بلا كلمات. لغة من لكمات، من سواعد، من بيارق، من جنون، من فعل محض، من طاقة لا حبر لها، من قتال لا يهدأ. فمن أراد دخول الجنة الفلسطينية لا يستأذن أحداً، ولا يقرع باباً، بل يخلع الأسوار ويطرد الحراس، ويذهب إلى بسالته مطوّباً بالدماء.

لماذا؟ تسأل واشنطن، عن سبب كراهيتنا لها؟

جواب:
أعطونا سبباً يتيماً لنحبها؟ أعطونا سبباً وحيداً منذ نصف قرن كي نغفر لها بعض ما تكبّدناه منها.

أعطونا تفسيراً واحداً لأسباب وقوفها السادي والفاجر إلى جانب أجيال السفاحين الإسرائيليين من مناحيم بيغن إلى آرييل شارون مروراً بكل جنرالات الدم والمجازر؟

لا تسألونا إذاً لماذا نشعر بأننا ننفجر في كل أمكنتنا ومواقعنا، ننفجر من الداخل، نتشظى حتى أننا نلعق الحقد.

لأنه لا ظلم يوازي هذا الظلم الأميركي الواقف بكل الدعم المتفوق إلى جانب الجلاد المدمن، ضد أطفال ونساء وشباب من حقهم أن يكون لهم بيت من جدار واحد على الأقل، من حقهم أن يكون لهم وطن من سماء زرقاء على الأقل.

ولا تسألونا عن أنظمة عربية تربت في الحضن الأميركي، وتدربت على السجود الدائم لواشنطن، وصارت تتقن الركض على جباهها طاعة وسمعاً وتنفيذاً.

ولا تسألونا عن لغة نصف فيها هذه الدول العوراء، وهذه الأنظمة التي ترضع الطاعة العمياء. إنها دون الوصف. هذه الأمة التي تشبه الصفصاف الحزين سينبت فيها السرو. هنا التاريخ له مكانه. هنا التاريخ يصنعه الزند والزناد، والشارع الناصع الذي ينبت أقداماً تهدر لغة لا توقفها قطعان القمع وكلاب الحراسة، ومرتزقة الكفاف اليومي.

إنه زمن صعب.
بل إنها مقتلة في أمة. ولكن التاريخ لن ينتهي، فهناك لغة أخرى سيكتب بها التاريخ العربي في فلسطين ولن يكون عبرياً، ولن يكون أميركياً.

نصف قرن من الأسرلة! إن القرن الحالي هو قرن زوال الأسرلة إلى الأبد.

١٠

كيف حال فلسطين؟

كيف حال فلسطين؟
إنها متهمة بأمل، ومتورطة بتفاؤل، ولها سطوة البقاء، وبهاء الأحزان.

إنها ليست في الإقامة الجبرية، ولا تسكن غير جسدها، ولا تقيم إلا على تخوم دمها.

وهي ليست خائفة، تستعيد صباحها كل مساء، وتنهض من سُبات الآخرين، كأنها اعتادت يقظة الروح، وقبضة الحياة.

وهي تعقد مع العدو، عداءً حقيقياً، وتصطحب معها سلاحها الحقيقي، وتطلقه في المرمى الحقيقي، ولا تسقط، إلا لتنهض، ولا

تحتاج إلى من يرشدها إلى الصراط المستقيم... حفظته بدم القلب، ورسمت مداه البعيد المتصل دائماً بإشارات المرور إلى الأمام، كأنها الزناد وقد رتَّل طلقاته آية.

وهي الموجوعة كل يوم، والحزينة بلا هدنة، والمعتصمة بصبر شاهق، تسجل في كل لحظة، اسمها في دفتر الدوام التاريخي، وتقيم عليه حارساً من شهدائها.

وهي، هذه الفلسطين الدائمة، الفقيرة من قوت يومها، المنكوبة بحصار يخنق النساء حتى الرحم، ويبسل أجنّة الأطفال، وأجنحة الأشجار وبراعم الرجال. هذه الفلسطين تتقدم، بكامل لياقة البؤس الإنساني، لتضرب العدو الفاخر، في العينين، فيدرك أنه عاجز، فيعوض عن عجزه بابتكار عنف جديد، وقتل كثيف، وحقد دهري... ويسقط بعد كل ذلك، مضرجاً بالسواد وفقدان الأمل.

وهي فلسطين هذه، بيدها المفاتيح، تحرس سنواتها القادمة، بكتاب، ولد ذات مأساة، من أرض، ولمَّ من ترابها حروفها، فامتدت أغصاناً من جمل مفيدة، أضافت إليها القبضات والطلقات، نصاً ما زال يتدفق عطشاً إلى أفق الوطن وقد أشرقت فيه شمس بلا استئذان.

وهي، فلسطين هذه، وطن باهظ، وطن لأطفال يولدون، وفي أغصان روحهم قدس ويافا وقرى تعتقت على وعد التحرير.
إنها بخير.

تُقْتَلُ، وهي أكثر حياة من فيافي هذه البيداء الشاسعة، الممتدة من محيط إلى خليج.

تُشَوّهُ، إعلاماً وأخباراً واغتصاباً، ولكنها أنقى من ضمير عالمي، وأكثر جمالاً من حنطة الأرض.

تقاتلها أميركا بوكالة لـ شارون ـ إسرائيل، ولكنها تنتصر، وهي التي وعدوها دائماً بالهزيمة.

هذه الفلسطين، بمن فيها، وما فيها، ومن معها، ومن مات ومن عاش من أجلها، أقوى من أن يدركها يأس، أو أن تطأها قيلولة. فهي المصلوبة منذ قرن، والمنتصبة على قارعة الانتصار.

هذه الفلسطين تتقن تكرار إبداعها: إن تقاتل الاحتلال، حتى «حيّ على الانتصار».

إذاً، طمنونا عنكم. فلسطين، في بؤسها وألمها ومأساتها، أقوى منا جميعاً. فسلام على ساعد وبندقية وأم تلد وطفل يحلم وجدة تكتب وصيتها: «حي على الجهاد».

لا تسألوا كثيراً عنا في فلسطين، إن عزفنا اليومي معروف، وترونه على شاشات التلفزيون، ولكننا نسأل عنكم. فهل ما زال برنامجكم العربي هو ممارسة القيلولة السياسية؟ ويا أيها العالم المتمدن أما زلت تخبئ خنجرك المسموم خلف ابتسامات الجمل الرقيقة؟

لا تسألوا عنا. إننا نعرف، واشنطن ضدنا، وبوش يقف على يمين شارون. ولكن يزعجنا أحياناً، أن نرى البعض منكم يقف على يمين الاثنين.
والله حرام.

١١

يا أمة

مطلوب مظاهرة.
مطلوب مشروع مظاهرة.
مطلوب التفكير بمظاهرة.
مطلوب نية غامضة بمظاهرة.

أو
مطلوب نصف مظاهرة.
مطلوب ربع مظاهرة.
مطلوب مظاهرة بشكل فردي.
مطلوب أن يسير أحد ما وحيداً.

أو

مطلوب أن لا نطلب شيئاً أبداً.
مطلوب أن نكف عن انتظار مظاهرة.
مطلوب أن نصبح أكثر تعقلاً، فلا مظاهرة ولا من يتظاهرون.

أو
مطلوب من «سيربح المليون».
مطلوب المشاركة بـ «يا قاتل يا مقتول».
مطلوب أن «تزن وزنك ذهب».
مطلوب أن تنجح في مباراة «الفخ» الأسبوعي.

أو
مطلوب أن تنهض عن مقعدك المسائي.
مطلوب أن تطلب من الشاشات الكف عن عرض المسلسل الفلسطيني الممل.
مطلوب أن يتوقف الشهداء عن الحضور إلى غرف الجلوس وصالوناتنا الأنيقة.

أو
مطلوب إعلان البراءة من الدم الفلسطيني.
مطلوب أن تكتب الاستقالة من الإحساس.
مطلوب أن يصبح التمساح شعار هذه الشعوب.
مطلوب أن يأكل العربي طعامه الدسم في نعشه الفخم.

أو
ليس مطلوباً منهم أي شيء.
ليس مطلوباً من الفضيحة العربية أن تخلع ثيابها وتتعرى، لأن

رائحتها نتنة.
ليس مطلوباً من هذا الربع العربي الخالي أن يعلن إنسانيته، ويفصح عن بطاقة ائتمانه بدل بطاقة هويته.

ليس مطلوباً أن يحرَجوا في فحولتهم ورجولتهم. فكل هذه الناصية الفلسطينية المرصعة بالدم، لا تمت إلى أرصفة التسكع السياسي العربي، ولا علاقة لها بكواليس البحث عن جمل وعبارات التنويم الأخلاقي.

أو
ليس مطلوباً أن يطالبوا، على الأقل، بشتم آرييل شارون، أو أن يكتبوا على حيطان أدمغتهم أن إسرائيل نازية وعنصرية، وأن يسجّلوا في يومياتهم التافهة، مواعيد العمليات والاقتحامات كأوقات للتسلية المثيرة.

أغلب الظن، أنهم يرون إلى المقاومة والبطولة، فيلماً وثائقياً، أو مسلسلاً سيئ التمثيل.

أما عن شهيتهم للمشاركة في الإحساس والوجع والدمع، فهذا من سابع المستحيلات العربية، التي يبلغ عددها، بعدد الأيام التي ناموا فيها في كهوفهم.

أغلب الظن أنني أكتب بغباء شديد، لأنني ما زلت أعتبر أن هذه الكتابة، قد تدفع أحداً إلى شتمي، أو اتهامي بالتيئيس، أو اعتباري طفيلياً من طفيليات البحث عن غذاء روحي يشبعني بعد دخول عصر المجاعة القومية.

أغلب الظن أنني لا أستفز أحداً.
بلى قد يستفز الأموات، أما الأحياء العرب، فرحمة الله عليهم. لقد ماتوا منذ الولادة.
يا أمَّة...
عفواً يا أمَة. فهذا هو اسمك الجديد.

١٢

الفضيحة

الضمير العالمي فضيحة.
النظام الدولي فضيحة.
المؤسسات الرسمية في العالم فضيحة.
الشعور الإنساني مصاب أيضاً بالفضيحة.
التعاطف الديني تطأه هامة الفضيحة.
الحكومات والبرلمانات تغسل يديها وتنام على الفضيحة.
إن جريمة
إن مذبحة
إن مجزرة
إن دماءً
إن عاراً...
إن بشراً حقيقيين ناصعين وأبرياء حتى الطهر، يُبسلون ويقتلون

ويدفنون علي وسع الجرح الفلسطيني، على مرأى من كل العالم، المتمدّن والمتحضر والمتخلف والمؤمن والاستهلاكي والملتزم واللامبالي، ولا يتحرك قيد أنمله لوقف جريمة ومذبحة ومجزرة ودماء ويغسل عاراً.

إنه عصر الفضيحة.
بل هو عالم أبشع من الجحيم. وأناس يتحركون كالآلات الحاسبة يجمعون أيام الأسابيع لقضاء «ويك أند» لا سياسي، بسبب ما أصابهم من ضجر، ولأن أحداث الدماء الفلسطينية فوق طاقتهم على الاحتمال.

إنه عصر محتقر.
عصر الانحطاط الأمثل.
عصر التقدّم المذهل إلى هاوية العدم الأخلاقي.
عصر اصطناع التبريرات التي تعجز أرقى الكمبيوترات عن اللحاق به وتفسيره.

عصر الوقوف إلى جانب الجلاد والرضى عليه، والتودد له، والخوف منه، وملاطفة في قبضته، والطلب إليه أن يستكمل نبوءة يشوع بن نون.

عصر إغماض العينين عن السفاح، والاطمئنان إلى عدد الضحايا، واستنفار الذكاء، للهرب من تهمة التواطوء، وجريمة الصمت، والتبرع باللوم والقصاصات المخففة أو المؤجلة.
إنه عصر الجبناء.
عصر الأقوياء برتبة أقزام.

ولولا حفنة من رجال ونساء وأطفال احتشدوا في شوارع العالم، لكان هذا العالم مسكوناً بالشياطين. ولولا الدم الفلسطيني لكانت هذه الإنسانية بلا إنسانية.

إنه العصر الذي يُقتل فيه كل الأنبياء والقديسين والطهرة ومتصوفي الوطن الفلسطيني، فيما المؤمنون، في أكثرهم، يقضون أوقاتهم في الصوم عن الغضب والاحتجاج والثورة.

إنه العصر المناوئ لفلسطين، الأقوى من الأساطير.
فيا أيها العرب الرسميون جداً،
وأيها العرب المدجنون جداً،
وأيها العرب المتواطئون جداً،
أنتم الفضيحة الكبرى، في عصر الفضيحة الدولي.

١٣

لست من أكلة لحوم البشر

القرن الواحد والعشرون منافق، وأنا غبي لأنني صدقته.
أقر أنه وعدني بأن يكون مختلفاً، كأن يلبس ثياباً جديدة، ويرتدي عقلية مناسبة، ويعتمر أخلاقاً متفائلة، ويرتكب فضائل شتى، فيصبح البؤساء أقل بؤساً، والفقراء أقل مرضاً، والشعوب أقل نوماً.

أعترف أنني كنت أهبل وصدقت ذلك عن ظهر قلب. ربما لرغبة مني في أن أستعمل يديّ مرة يتيمة للتصفيق، بعدما اعتادتا على أن تفركا أصابعهما ندماً، أو أن تنقبضا قبضة، أو أن تلطما الخدين حزناً وتفجعاً.

أقرّ أن القرن الواحد والعشرين نصب لي فخاً جميلاً، فأنست في الوقوع فيه.

قال: ستنبت الحرية كالعشب، فرأيت العالم جنينة، والعالم، كما خلقتني يا رب، قبل ارتكاب الخطيئة الأصلية.

وقال: سينبت الخبز في راحات البشر، فرأيت الناس في عناق كالسنابل، والشعوب تنهض من نومها، لتوزيع الخبز الفائض من الموائد العامرة.

وقال: سيعود كل إنسان مساء إلى بيته، فرأيت العالم كالعصافير، تؤوب مساء إلى أعشاشها، وهي ترتل بأجنحتها أفراح الغمام، وأنغام السماء.

وقال: السلام عليكم، وسلامي أعطيكم، فرأيت الكرة الأرضية، تتصافح قاراتها، وترقص في احتفال سلامي، بعدما وزّعت الحقوق بالتساوي، على البشر.

وأرسل القرن الواحد والعشرون بطاقات معايدة طنّانة، ودعوات لجميع أهل الأرض إلى حضور الاحتفال بقدومه، وشاركت الشعوب ببهاء لحظة ولادته.

واختلفت في حجم الأفراح التي سفكتها قبل عبوره في تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً.

عمره الآن عامان فقط وسيكبر عاماً بعد عام.
ولكن، هل تعرف أيها القرن الجديد، كم عمرنا الآن، نحن الموعودين، كالأغبياء، بالخلاص.

آلاف مؤلفة فقدت أعمارها بالمرة. الحرية لا أرض لها كي تنبت، إنها اختصاص الأقوياء فقط. أما الضعفاء والمغلوبون والمهمشون، فلهم صرير العبودية، وقيود الظلام، وأحذية التخلف، وبكاء يابس وصرير أسنان لا يتوقف عن التكرار.

عمرنا الآن أيها القرن الجديد. بلا عمر. بلا سنوات. فالخبز لا ينام إلاّ في المناطق الدافئة بأموالها الفائضة، أما الشعوب المحترقة بخواء أوجاعها، فلها من فتات العالم ذلّ التسوّل، ومذلة البقاء على قيد الحياة، وهي ممدودة اليدين، لتحصل على دين، يكفيها مؤونة نعشها.

أمّا كيف يعود الإنسان إلى بيته؟ فلا أعرف بعد عنواناً لمهجر، للاجيء، لفائض من البشر. ترى، كيف يعود الفلسطيني إلى بيته؟ هل من طريق غير الكفن. هل من وقت محدّد يعود فيه الفلسطيني إلى فراشه غير مطهّر بدمه؟

أيها القرن الواحد والعشرون.
أيها القرن المتوحّش.
إنك تبدو من آكلة لحوم البشر، وأشعر أن أجسادنا ستكون وجبة لشهيتك الفائقة في القتل والعنف.

أيّها القرن المزمن في الدماء، لست منك.
وأستقيل من زمنك، وأرفض أن أكون، من آكلة لحوم البشر.

١٤

السقوط

سقط القناع وليس خلفه وجه.
سقطت الوجوه في سحنة الهاوية.
سقطت الهاوية العربية إلى فراغها المدوي.
سقطت الأسماء واللغة.
سقطت الألقاب والكراسي.
سقطت الأعالي الرفيعة إلى سافلها السافل.

لم يبقَ للسقوط متاع كي يسقط أكثر.
الأنظمة العربية المخلعة أنفقت ثيابها الداخلية في ممارسة السفور عن سابق إغراء.

أصحاب النظام العرب المتربعون على رأس قائمة السقوط تحولوا إلى

أساتذة في فن الترويض على العيش بكرامة في قاع الهاوية المهين.

فلاسفة الأنظمة العربية وحكماؤها الدجّالون، خرقوا حرمة العقل، وبرروا فلسفة السجن، وباتوا حراساً لهذا التابوت السياسي المسجى من المحيط إلى الخليج.

سقط الخجل العربي إلى درك الوقاحة.
سقط العقل العربي إلى مستوى الطبول تقرع خواءها في إيقاع فاجر.

سقطت الأخلاق، تحوّلت إلى بضاعة رثة وأثاث منهك، وتجارة غثة.

سقطت الجغرافيا العربية، طلقت الكيانات أراضيها، وانحنت طوعاً، لتصير مسطحة، لا قمة فيها ولا قامة لأحد.

سقطت الجامعات في امتحانات تخريج دفعات من العاطلين من العمل والعاطلين من الفعل والعاطلين من ممارسة لغة القبضات.

سقطت المدارس في كتبها المستلبة. وسقط معها أساتذة ومعلمون أنفقوا ساعاتهم في تربية الأجيال على ممارسة الطاعة.

سقط التاريخ العربي بكامل أناقته في متحف الشمع، بعضه يباع تماثيل في أسواق لا يشتريها «إلاّ والعصا معه».

سقط الجميع:

سقط الحاكم والمحكوم.
سقط الكاتب والمكتوب.
سقط الشارع والمشروع.
سقط الغالب والمغلوب.
سقطوا جميعاً عندما سادت ثقافة التسوية، وثقافة التبرير، وثقافة الممكن، وثقافة النجاة، وثقافة السلامة، وانتشرت ثقافة الاتكال والإتباع والتقليد والتفسير والتسيير «وليس في اليد حيلة».

سقطوا بلا استثناء.
أموالهم سقطت في الربا الوطني والقومي.
أرصدتهم سقطت في الجيوب المتخمة بالسمسرة.
ثرواتهم سقطت في المشاع الدولي، فاحتكرها أحفاد الذين يبشرون بفضائل الحرية ويمارسون الإبادة.

سقطوا بلا رحمة.
عواصمهم آلت إلى أزقة ديبلوماسية، وأماكن للمصفات المطلوبين الفارين من وجه العدالة الأميركية وواجهات محالّهم مزدانة بقرارات الإذلال، التي ترتفع لها الأيادي تصفيقاً، وعلى جباه مبانيهم العالية، مذكرات جلب للشعوب إلى السجن الدولي.

سقطوا بلا شفقة.
سجانو هذه الأمة من المحيط إلى الخليج سقطوا.
سفاحو هذه الأمة من أبجديتها إلى الـ ١٤٤١ سقطوا.
شعوب هذه الأمة، من أخمص رأسها حتى رؤوس أنامل أقدامها سقطوا.
لم يبق أحد.

ابحثوا عن هذا اللا أحد، الذي يبلغ تعداده أكثر من مئتين وخمسين مليوناً فلن تجدوه.
ابحثوا عمن لم يسقط بعد.
ابحثوا ...

أمس احتشدت واشنطن بنصف مليون مؤيدين للعرب وضد الحرب.
أمس احتشدت في لندن جموع غفيرة من الأجانب العرب، وقالوا لا للحرب.
أمس اقتحم شوارع توسكانا في إيطاليا عدد من العرب الطليان.
أمس وقبله وبعده. لم يبقَ عندنا إلاّ اللا أحد.
فلسطين وحدها. العراق وحده. إلى آخرنا جميعاً.

كل هذا السقوط هو نتاج القمع والسرقة والتسلط والزنى السياسي.
كل هذا السقوط، لأن كل الممنوعات الوطنية مسموحة، وحدها الديموقراطية ممنوعة.

إن شعوباً أسيرة، تبوس قيودها وتطرب لرنين سلاسلها، وترقص على إيقاع طبل السلطة، لا تمشي في تظاهرة احتجاج، ستسير في جنازتها مراراً.. إلى آخرها.

١٥

كتاب غير مفتوح

هذا نص رسالة غير مفتوحة إلى مؤتمر قمة عربية ما.
يحبّذ عدم قراءتها ويستحسن إتلافها ويا ليتها لم تكتب قط.

نتمنى عليكم ما يلي:
أولاً: البحث في جنس الملائكة. لعلكم تهتدون إلى حل هذا اللغز بعدما اهتديتم إلى معرفة الأعراق والأجناس والقبائل والأفخاذ والبطون العربية، وأقمتم فوقها ردحاً من قرن. إننا ننتظر منكم ذلك بفارغ الصبر.

ثانياً: بذل الجهود الكافية لاكتشاف دواء الطرش العربي، ولا نطلب منكم المستحيل أبداً. فالعمى العربي المنتشر ليس من اختصاصكم، لأننا مصابون به منذ ولادتكم.

ثالثاً: إقامة برنامج زمني، محدد بنصف قرن، للتدريب على الأمية السياسية المستدامة، وتعليم الأجيال الكفيفة، استعمال الحاسوب العربي، الذي يحسب أننا «خير من تسعى به قدم».

رابعاً: وضع خطة، غب الطلب، لخصخصة الأراضي العربية، بما تحتها ومن فوقها، وعدم ترك البحار والأجواء العربية سائبة، فالمال السائب يعلم العرب الحرام، فحرام أن تبقى هذه الثروات بيد من يبذرها مجاناً.

خامساً: إقامة سوق عربية مشتركة لبيع أو تأجير هذه الشعوب، ودعوة العالم إلى التفرج على حضارتنا وثقافاتنا، على أن يتم تعقيمها ومنع القوارض عنها ومطالبة منظمة اليونسكو بإدخالها إلى حظيرة التراث الإنساني، للحفاظ عليها من الاندثار.

سادساً: طبع دليل سياحي للسياح العرب المقيمين بالملايين في شقق تسمى أوطاناً مفروشة، لاكتشاف إسرائيل المستعربة، والعروبة المتأسرلة. وإضافة مقعد خاص وجناح فاخر لهذه الدولة التي تحظى برعاية قصوى من المحيط إلى الخليج.

سابعاً: تعميم الديانة الأميركية، والتبشير بقضائها وقدرها، ومنحها المكانة اللائقة في المعابد الحكومية، والمراكع السياسية، وتقديم القرابين السخية لآلهتها، وتكثير أتباعها من ذرية غير قابلة للتعداد.

ثامناً: تسطير مذكرة جلب، وتدبيج قرار اتهام، واستصدار حكم مبرم، لكل من تسوّل له نفسه استعمال كلمة فلسطين، حفاظاً على حرمتها في الآخرة العربية. واستحداث مكتب لاستقبال اقتراحات

مدروسة، لتغيير أسماء الدول العربية، حيث إن هذه الأسماء لم تعد رائجة في النظام العالمي الجديد. ويمكن استعمال لغة أجنبية جميلة تكون على وزن «نيودلهي» و«نيوكير» و«نيوفحطان».

تاسعاً: خلق منطقة تجارة حرة بالرفيق الأسمر العربي، وإقامة منطقة تبييض سياسات عربية، بعدما ضبطت في المحافل الدولية، بأنها تتبنى الازدواج الكلامي، وهذا من الممنوعات، فهي تبيع الأميركيين مواقف وتحرض شعوبها ضد أميركا. وقد تمّ ضبط كمية من الأنظمة وهي الآن تحت المراقبة.

عاشراً: دعوة المجمع العالمي العربي إلى إعادة النظر بالقاموس العربي، وحذف الكلمات البائدة مثل، مستشزرات، والحرية، والعدالة، والحق، والوطن، والكرامة، والديموقراطية، وكل مشتقاتها التي لا تستعمل، وإيجاد مرادفات عديدة لكلمات مثل: النظام، والبوليس، والشرطة، والمخابرات، و«السجن مدرسة»، والممنوع، والحرام، والطاعة إلخ. وإضافة عدد مناسب من الأمثال الشعبية الرائجة والحِكَم الأزلية، مثل «الظلم أساس الملك»، و«رأس الحكمة مخافة الحاكم»، إلى آخره.

حْدَ عْشراً: دعوة الكتاب والمثقفين الملتزمين بعقيدة العولمة المقدسة، إلى عقد ميثاق شرف، تهتدي به أسواق الأمة، بيعاً وشراء، والتبشير بفضائل السلامة البدنية، ولو على حساب التلوث الأخلاقي، وإجراء عمليات قيصرية، لإبراز محاسن العجز، وإغراءات الضعف، وغزل النحافة، واعتبار الهزيمة خياراً استراتيجياً، والانحناء أمام عاصفة الصحراء وعاصفة الأجواء، وعاصفة النفطاء (من نفط) حكمة وتعقلاً تطلبان شجاعة استثنائية لتبنيهما.

ثْنَعْشراً: السماح للمواطنين العرب بتربية أجنحة على أن يقلدوا فيها الدجاج، وعلى أن تكون فقط لإغراء الديوك الرومية. تماماً كالأسلحة العربية التي أغرت الجبناء بسهولة إطلاق النار في المناسبات الكرنفالية الرسمية.

ثْلَتَ عْشراً: تبّني توصية بعض الخارجين على النظام العربي، بإقامة مدفن رخامي فخم للقمم العربية، السابقة واللاحقة، على أن يكون في مكان ناء، مسوّر جداً، كي لا تغريهم السخرية ويدفعهم الغضب ويحرضهم اليأس على ممارسة فنون سفيهة بحقه، خصوصاً أن بينهم ملايين مقموعة، وملايين مدفونة حية، وملايين منهوبة، وملايين مسجونة ومضرجة، وملايين مسحوقة، وملايين مستعبدة، وملايين مبتورة، وملايين مشوهة، وملايين مخربة، وملايين مهجرة، وعشرات الملايين من القتلى والجرحى والخائفين والمذعورين والمرعوبين.

إننا نخشى أن تحتفل هذه الملايين المكتظة على طريقتها. فتبول على الرخام.

أخيراً، نعدكم أن نكون أوفياء جداً لفرحنا، بغيابكم الدائم.

١٦

هكذا كلمني زرادشت الفلسطيني

فليُصب الخطاب السياسي بالداء البيزنطي.
فليتفرغ المعنيون للبحث في جنس الملائكة، وفي تصنيف العالم، بين كفار ومؤمنين، وأهل شر وخيرين.

أشعر بأنني خارج الموضوع، ولا منزلة بين المنزلتين. الشيطان الأكبر، لقب متداول بين الأعداء. الشاعر الروسي ألكسندر بوشكين، يطلق هذه المرتبة النكراء على فرنسا، فرنسا الاجتياحات الأمبراطورية. حتى الأدباء يصابون بلوثة تعميم عدوى الألقاب.

أشعر بأن الألقاب كالقبعات تغطي الرؤوس الغائبة.
الاتحاد السوفياتي، شيطان أكبر، وفي أفغانستان هبّت عليه «ملائكة»

الـ سي.آي.إيه، وطردته من القسطنطينية، فدخلها الفاتح الطالباني، برفقة الأفغان العرب.

واعتدل المقام الشيطاني، بعد فترة، على منصة الولايات المتحدة الأميركية، ومن معها، وتحديداً إسرائيل. فيما، استقر «هبل» الجاهلية، في كابول، إلى أن سقط البرجان في نيويورك، وتغير العالم.

وشعرت بأن دواراً بلغ ذروته.
نزال، بلا مقدمات، بين الملائكة والشياطين، وكل يدّعي وصلاً بسماء. ثم اقتسام العالم، بين إيمان بلا حدود، وكفر بلا حدود، وحرية بلا حدود، وعدالة بلا حدود. ومن لا حد له، يتصف بالربوبية. وهكذا أدخل الله إلى هذا العالم، تارة بآية وطوراً بزلة لسان. ونكاد اليوم أن نزرع الأرض خيولاً بين اجتهاد وفتوى، وبشارة بالحرية وقصاص للإرهاب.

أشعر بأنني لست معنياً بالمرة. ومحصّن جداً ضد الداء البيزنطي. فمن يصدق أن حربي متواضعة جداً، ولا تحتاج إلى تدخل الآلهة، ولا إلى تبرع الديانات بالحجج والاجتهادات. ومن يصدق أن حربي بسيطة، ولا تحتاج إلى «حوار ديانات» و«صدام حضارات، ولا إلى قراءة «نهاية التاريخ»؟

ما قاله بن لادن عن الكفار من اليهود والنصارى سلفية منحطة، واجتهاد حجري، وعداء مستور لفلسطين وبيع سافر للشعوب والحرية.

وما قاله جورج دبليو بوش، عن حلم ليلةٍ في البيت الأبيض، وعن

رؤيا له قديمة، ونبوءة جديدة، بأن فلسطين موجودة، وبإمكانها أن تصبح «دولة» ما، في زمن ليس له ما... كذبة مزمنة، ورشوة أنيقة، وزيف مبتذل، وجريمة نفاق إضافية، لتغطية حرب البرابرة على البررة.

ولا تغضبني الحماسة البيزنطية، ولا ترعبني جحافل الفاتح، لأن المعراج الدائم، لا يزال إلى القدس ورام الله وغزه وجراحاتها المهاجرة إلى مواجعها. كما لا يقلقني هذا الخلط بين الكفر الديني والتكفير الشعوبي، لأنني امتهنت بدقة، التكفير السياسي، في ما خص التعامل مع العدو، أو التساهل معه، أو حتى تناسيه، بحجة مقاتلة الشيطان الأكبر، إن في أفغانستان منذ عقدين، أو في الشيشان منذ سنتين، أو في صربيا منذ مذهبين في المسيحية.

حربي بسيطة للغاية، ومتواضعة جداً، وعمرها حتى الآن، أكثر من عشرة عقود، وهي تبشر بولادة قمر جديد، وفق التقويم الوطني والقومي لا غير. أو، وفق التقويم النضالي السليم في الموقع السليم، بلا الدخول في روزنامة العهد البيزنطي، وجدله الديني، وفتاويه التي لا ناقة لي فيها ولا جمل.

فليذهب بوش إلى صموئيل هنتنغتون، وليكافئه البيزنطيون الجدد، على أي قداس أو إيمان انتموا، بأن يتبنوا صراعه، و... و«يكونوا من الخاسرين».

فليذهبوا جميعاً إلى «نهاية التاريخ»، لأن تاريخنا الحقيقي في فلسطين، له بدايات أخرى، وستمضي إلى نهايات الآخرين.

حربنا، التي أنتمي إليها، ليست من هذا العالم الممتد جماهيرياً، من

أبو سياف، إلى الملا عمر حتى آخر ديموقراطي يشن حروباً ويشرّع قتلاً، ويدمّر شعوباً، باسم الحرية والعدالة.

أوجز حربي بما يلي، وآمل أن يساعدني القارىء في تبرير انسحابي في الانزلاق إلى هاوية صراع الديانات، أو صراع الحضارات، أو حوار الديانات بالقفازات أو حوار الحضارات، بعد تبني الوأد الطالباني من جهة، وتأييد «النسر النبيل» من جهة أخرى.

حربي مختصرة جداً:
كان لي بيت فأخذوه، وأريد استرداده. وكان لي حقل، فأقاموا عليه مستعمرة، أريد استرجاعه.

وكان لي بيارة ليمون، أنشأوا عليها معسكراً، أريد احتضانها من جديد.

وكان لي طريق تصل قريتي بقرى أخرى، ذبحوها من الرصيف إلى عنقي. وأنا أريد أن أتجول بحرّية بين القرى. وأزرع الأرض عناء قدمي.

وكان لي أب، حاول الدفاع عن بيته، فقتلوه، ولي ابن اليوم، يصوب حجارته المسنونة، دفاعاً عما تبقى لنا من ظلال في المخيم، ولا أريده أن يموت.

وكانت لنا شمس تشرق، ولم تعد. وسماء زرقاء، ولم تعد، وقدس نصلي فيها ولم تعد، وقيامة نرتل فيها، ولم تقم، وبيت لحم نولد فيها، ولم نولد. وأنا بكل بساطة، إلى هذه الحرب أنتمي.

هذا دمنا، رغيفنا اليومي. وهذه سواعدنا بنادقنا، وهذه صدورنا كفافنا الوطني، وما زلنا في أول الحرب.

فلماذا تريدون أن تأخذوا منا هذه الانتفاضة؟ وأين قبلتكم السياسية اليوم؟ ولمذا تراجعت القدس إلى ملف يُلَزَّم للإدارة الأميركية؟ حربنا الطويلة متواضعة جداً.

نريد أن نستعيد، نحن، ما أخذوه منا.
نريد وطناً بحجم وطننا، لا أكثر ولا أقل، ولا نريد أن نبقى في المنافي، نعد العصي، وترتطم أكف الأنظمة، المؤمنة والملحدة والما بين بين، برقابنا، فيتناثر دمنا على أيدي إخوتنا، ثم نشيّع سياسياً إلى المثوى الأميركي الأخير.

وإذا كان لي أن أتضامن، وهذا حق علي، فمع أولئك الذين من جنسي، أفغان أخرجوا من ديارهم، من قبل أفغان اغتيلوا على الملأ، من قبل، ونساءٍ أخرجن أحياء إلى آخر مماتهن، من قبل، إلى قبل أن يبدأ الخروج الكبير، بعد الوجبات الأميركية السريعة الطلقات والكثيرة الجنون.

أتضامن مع وجع الموجوعين هناك حيث يروى، أن نساء لجأن إلى الشقيقة الباكستانية، يتسوّلن لقمة، بعدما تركن رجالهن أسرى المحسبين: نعم، أسرى المحبسين.

أتضامن مع أناس طيبين، مع شعراء أمهات، يصلين:
«يا إلهي،
لا تدع امرأة تموت في المنفى، ستنسى اسمك.

وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، لن تفكر إلا بمسقط رأسها».
لأننا...
عندما كنا نلفظ أنفاسنا في المنافي، وفي الوطن المغتال، لم نكن نفكر إلاّ بمساقط رؤوسنا، فاغفر لنا يا رب، اشتهينا وطننا بعد الموت، لا جنتك.

لأننا، كما قالت نساء أفغانيات:

«يا بني.
لو تخليت عن حربنا،
سألعن، حتى حليب ثديي».

ولن نلعن الحليب الذي رضعناه. وما نستطيع أن نفعله، هو القتال»، في الأرض الصح. فإن لم نفعل «خضعنا».
فوطني «عقد على عنقي،
قد أسير عارية،
لكني،
لا أبقى لحظة بلا عقد». بلا وطن.

فإلى الذاهبين إلى مضارب الملّا، لن ترونا بينكم. وإلى المسافرين إلى ضفاف هنتنغتون، اسمحوا لنا بالبقاء في تاريخنا وجغرافيتنا. وإذا كان علينا أن نبقى صفاً واحداً، وفق رغبة الأكثرية، فليكن هذا الصف مرصوص القوام فوق الصراط المستقيم إلى فلسطين فالطرقات الأخرى، وإن تشعبت رؤاها الدينية، آيلة إلى أن تسقط تحت قدمي واشنطن، أو بين ذراعيها.
هكذا حدثني زرادشت الفلسطيني.

صدر للمؤلف

الطائفية على ضوء تاريخها ونتائجها، دراسة ١٩٧٦
حواشٍ على القيود، مقالات سياسية ١٩٨٠
رابندرانات طاغور، دراسة وتعريب ١٩٨٠
غابرييللا ميسترال، دراسة وتعريب ١٩٨١
أول الموت، شعر ١٩٨٢
الخراب ـ يوميات شاعر في بيروت ١٩٨٣.
وطن وعصافير، قصص ١٩٩٣.

نصري الصايغ

بولينغ في بغداد

لماذا يقتل الأميركي؟

فيلم مايكل مور «بولينغ فور كولومباين» يجيب عن السؤال.

كيف يقتل الأميركي؟

ثمة رواية عن سبعة ليال يتجول فيها القتل من كابول إلى بغداد وفلسطين ونيويورك. سبعة كوابيس تصح على المعنى الحضاري للبربرية الجديدة.

هل القتل سياسة أميركية؟

تكاد السياسة تقارب الهواية. الهواية التي لا تشبع في ممارسة الشبق المالي، والسيطرة على العالم... فأميركا ليست من هذا الكوكب.

لماذا القتل جائزتنا؟

منذ قرن اختارونا لنكون أعداء... نولد، والعدو على أبوابنا، ونوافذ عيوننا، وعلينا أن نكون الضحية. كنا نحبهم، وكنا نقلد خطواتهم، ولكنهم كافأونا بالقتل من المهد إلى اللحد.

مرة أخرى، كيف يقتل الأميركي!

الجواب، في هذا الكتاب: «بولينغ في بغداد».

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-150-7